جامعة الأزهر
كلية أصول الدين
والدعوة الإسلامية بالمنوفية

# إعجاز المثاني القرآنية
## في ضوء التكرار

الدكتور
**عبد الرحمن محمد عبد المتعال**
أستاذ مساعد التفسير وعلوم القرآن
فى كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية

مستلة من
حولية كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية
العدد الرابع والثلاثون، لعام ١٤٣٥- ١٤٣٦هـ/٢٠١٤- ٢٠١٥م
والمودعة بدار الكتب تحت رقم ٢٠١٥/٦١٥٧

دار الأندلس للطباعة-أمام كلية الهندسة-عمارات الزراعيين-هيبه الكوم ت ٠٤٨٢٢٢٢٠٩٠

# المُقَدِّمَة

الحمد لله المانِح مَنْ شاء ما شاء، والغافر دون الشرك بحكم المشيئة لمن أساء، والمُصْطَفِى مِنْ الجنس الإنسانى الرُّسُل والأنبياء، ومن أَتْبِاعهم من جَعَلَهُم رُحَمَاء بَيْنَهُم وعَلَى الكفار أشِداء، وَمِنَّ خَلَفِهم من آثر الاهتداء والاقتداء، وجانَب التَّنَكُّب عن سُبُلِهم الواضحة، والاعتداء، ولزم الجماعة عند افتراق ذَوِى الشِّقاق فَحَسَم الدَّاء، وتمَسَّك بالكتاب والسُّنَّة، فَمُنِحَ الشِّفَاءَ واسْتَوْضَح الطريق بهما إلى الله تعالى وتَحَقَّق الإنباء، وتدبر كتاب الله فشاهَدَ المُعْجزة القاطعة والبراهين الساطعة وعَرَف الأَنْباء، وعَلِم مُرَاده (ﷺ) بقوله: (وإنما كان الذى أوتيته وحياً)[1]، فأعْمَل جُهْدَهُ فى تَدَبُّره الفِكر والاعتناء، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، شهادةَ من وُفِّقَ فالْتَزَم بشرُوطها حق الوفاء، وأشهد أن سيِّدنَا محمد عبده ورسوله، المُعْطَى فى القيامة المقام المحمود واللواء، شَهَادةً نَرْجُوا بها من شفاعته العظمى الحُظْوة والاعتناء، ويجعل لنا دار الخلد المصير والجزاء، وصلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الحائزين فى وفائهم باتِّباعه السَّبْقَ والثَّناء، والأُسْوة والقُدْوَة لمن بعدهم، وسلم تسليماً كثيراً.

**وبعد:** فإن كتاب الله تعالى أَحَقَّ ما أُنْفِقَت فيه نَفَائس الأَعْمَار، وقُصِر على اعتباره المَلَوان: الليلُ والنهارُ، واعْتُمِدَ مَوْئِلاً وملاذاً، واعْتُصِمَ بعُرْوَته الوُثْقَى وَزَراً[2] مُنجياً وعِيَاذاً، واستُنْزِلَت به البركات، واهْتَدى بواضحات أنواره عوالم الأرض والسموات، فهو الهدى والنور، والشفاء لما فى الصدور، والوَاقِى لمن تَمَسَّك به

(١) الحديث: أخرجه: أبو داود فى كتاب: السنة باب: لزوم السنة من حديث المقدام بن معد يكرب برقم: ٤٣٢٨، وقال الألبانى: صحيح، وأحمد فى المسند: ٤/ ١٣٠ وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح.*٨.

(٢) الْوَزَر: محرّكه الجبل المنيع وكُلُّ مَعْقِل.

واعْتَلَقَ بسببه من كل مخُوف ومَحْذُور، والنعمة التى قصَّر عن الوفاء بشكرها كل مكتوب، ومسطور، وأنَّى يُتَصَوَّر الكفاء وَيُتَوَهَّم الوفاء بشُكْر ﴿**قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ**﴾ "المائدة: ١٥".(١)

هذا وإن مصطلح التَّكْرَار قد دارت حوله الكثير من الدراسات بياناً لمفهومه، ومهمته، واكتشاف مجالاتِ أَرْحَبَ له، ومع ذلك كله فإن هذا المصطلح لا يزال مبتور المعنى محدود الحركة والعطاء خارج دائرة القرآن.

فالتَّكْرَار وهو فن القول الرفيع ليس مجرد صيغ أو قوالب متماثلة، وإن بدا كذلك فى بعض مظاهره، وإنما هو عناصر أصيلة متحركة متفاعلة، شأنه فى ذلك شأن هذه الطبيعة المشهودة المتكررة فى كثير من مظاهرها، والتى لا يكاد الكثير فى معظم الأحيان يشعر بها لتحرك عناصرها وتنوعها وتفاعلها مع غيرها من عناصر الطبيعة.

والتَّكْرَار لا يقتصر على أداء مثل هذه الأغراض – كالتأكيد والتحذير والإغراء والمبالغة، وغير ذلك – أو على أداء دَوْرٍ إضافيٍّ لزيادة فَضْل الكلام وتحسينه، وإنما يُعْطِى عطَاءً حقيقياً ويؤَدِّى دوراً أساسياً، على مستوى تحقيق أهداف الخطاب القرآنى.

لهذا كان اختيارى بعون الله وتوفيقه لهذا البحث الموسوم بـ (إعجاز المثانى القرآنية في ضوء التَّكْرَار).

**وكان من دوافعى لاختيار هذا الموضوع عدة أمور أهمها:**

**أولاً:** أنه يتعلق بمصطلح قرآنى وهو (المثانى).

**ثانياً:** أنه يتعلق بأشرف الكتب وأصحها القرآن الكريم.

---

(١) مَلَك هذا الكلام تلابيب قلبى، واستولى على عقلى، لذا آثرته بالتقديم، وهو جزء من مقدمة أبى جعفر بن الزبير لكتابه: (ملاك التأويل) ص ١– ٣، طبع دار النهضة العربية.

**ثالثاً:** رغبتى فى خدمة القرآن العظيم، والعيش الكريم فى رحابه وبين معانيه الثرة، وحِكَمِه وأَحْكامه الوافرة الْجَمَّة.

**رابعاً:** جمع أغلب ما يتعلق بهذا الموضوع فى هذا البحث – قدر الطاقة – لِيَسْهُل مَأْخَذه وَيَقْرُب على طالبه.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يكون فى تمهيد، ومبحثين تَسْبِقُهما المقدمة، وتَقْفُوهما الخاتمة والفهرست.

**أما المقدمة: فقد تناولت فيها بعد الحمد لله والثناء عليه بما هو أهله والصلاة والسلام على رسول الله (ﷺ) أهمية الموضوع، ودوافع اختيارى له.**

**وأما المبحث الأول: وعنوانه: (مفهوم المثانى القرآنية)، ويشتمل هذا المبحث على تمهيد وأربعة مطالب:**

**أما التمهيد : فعنوانه: (المثانى فى اللغة).**

**وأما المطلب الأول: فعنوانه: (المثانى صفة للقرآن)، وهو يَخْتَصُّ بالمثانى كما وردت فى آية (سورة الزمر).**

**وأما المطلب الثانى: فعنوانه: (المثانى صفة لسورة الفاتحة)، وهو يَخْتَصُّ بالمثانى كما وردت فى (سورة الحجر).**

**وأما المطلب الثالث: فعنوانه: (جهود تراثية)، وتناولت فيه ما قُدِّم من جهود تراثية فى هذا المفهوم.**

**وأما المطلب الرابع: فعنوانه: (المثانى ضوابط اصطلاحية)، وفيه وضحت مفهوم التكرار وغير ذ ذلك.**

**وأما المبحث الثانى: فعنوانه: (إعجاز المثانى القرآنية)، ويشتمل على ثلاثة مطالب:**

**أما المطلب الأول: وهو بعنوان: (المثانى والتميز القرآنى)، وفيه بينت تميز كتاب الله عما عداه وذلك للوصول إلى بيان حقيقة أخرى، وهى أن المثانى تُعُد مقوما هاما من مقومات هذا التميز.**

**وأما المطلب الثانى: وهو بعنوان: (المثانى وإقرار النمط الجديد)، وفيه وضحت الدور الهام الذى قامت به المثانى فى إقرار النمط البيانى الجديد للقرآن .**

**وأما المطلب الثالث: وهو بعنوان: (المثانى وتصديق القرآن)، وفيه وضحت الأدلة التى تقدمها المثانى على صدق مضمون القرآن أوصدق مصدره.**

**وأما الخاتمة: فتتضمن أهم النتائج التى انتهى إليها البحث، والمصادر والمراجع، ودليل محتويات البحث .**

### منهجى فى كتابه البحث:

فقد راعيت عند كتابتى الأمور التالية:

**الأول:** عزوت الآيات إلى مواضعها من المصحف الشريف، مع ضَبْطِ الآيات بالشَّكل وَذِكْر رقم الآية واسم السورة – إلا ما تكرر– حسب المُثْبت فى المصحف الشريف.

**الثاني:** تخريج الأحاديث والآثار تخريجاً مختصراً، اقتصرت فيه على عزو الحديث إلى مواضعه، مع بيان حَالِه صحَّةً أو حُسْناً أو ضَعْفاً مُسْتَدِلا فى ذلك بأقوال أهل الاختصاص من خلال كتبهم فى الجرح والتعديل.

**الثالث:** الحرص على الموضوعية فى البحث بالتزام المقصود، وتحرير المراد، وتحقيق القضايا إلى غير ذلك من الأمور التى أَفْرَدْت صُلْب البحث لموضوعاته، وجعلت الهامش لما يَعِنُّ من المسائل الفرعية بالنسبة للمبحث أو المطلب.

**الرابع:** التزمت بالتوثيق العلمي لما أُورِدهُ فى جميع البحث بذكر اسم المرجع أو المصدر بالجزء والصحيفة، إلا فى تخريج الأحاديث فكنت أذكر الكتاب أو الباب ورقم الحديث إلا ما شذ عن ذلك وندر.

**الخامس:** ترجمت لبعض الأعلام الواردة أسماؤهم فى صلب البحث.

**السادس:** أَلْحَقْت في آخر البحث فهرسا للمصادر والمراجع التى رَجَعْت إليها أثناء كتابة هذا البحث، وذكرت معلومات النشر.

هذا وقد بذلت غاية جهدى فى هذا البحث المتواضع، فإن كنت قد أصبت فيه فهو من فضل الله تعالى وتوفيقه، وإن تكن الأخرى فمنى، والله تعالى أسأل دائماً أن يتجاوز عنا إن نسينا أو أخطأنا، وأن يرزقنا بمَنِّه وَكَرَمه الإخلاص والقبول، وأن يجعل هذا العمل كله خالصاً لوجهه الكريم، إنه سميع قريب مجيب.

**كتبه**

**الفقير إلى الله الغنى المتعال**

**عبد الرحمن محمد عبد المتعال**

# المبحث الأول
# مفهوم المثانى القرآنية

**تمهيد: المثانى فى اللغة:**

وردت مادة (ثنى) فى "لسان العرب" بأكثر من معنى فى أصل اللغة: ثَنَى الشيء ثَنْياً: ردَّ بعضه على بعض، وقد تَثَنَّى وانْثَنَى وأثناؤه ومثانيه: قُوَاه وطاقاته[1] واحدها ثِنْيٌ – بكسر الثاء وسكون النون –، ومَثْنَاة بفتح الميم وسكون الثاء، ومِثْنَاة بكسر الميم وسكون الثاء – وأثناء الحَيَّة: مطاويها إذا تَموَّت ... وأثناء الوادى ومثانيه ومحانيه: معاطفه. **ومعنى آخر** قريب من سابقه هو الثَّنْى– بالثاء المشددة المفتوحة والنون الساكنة – أى: ضم واحد إلى واحد، والْثِّنْى– بالثاء المشددة المكسورة والنون الساكنة – الاسم، ويقال: ثِنْيُ الثوب لما كُفَّ من أطرافه، وأصل الثَّنْى: الكف **ومعنى ثالث** قريب مما سبق أيضاً حين نقول: ثنى الشيء، أى: جعله اثنين، **ومعنى رابع** يتصل أيضاً بكل المعانى السابقة، وهو التَّكْرَار والترداد، وهو ما يظهر من قول العلامة ابن منظور: وقول الله (ﷻ): ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ**﴾ "الحجر: ٨٧" المثانى من القرآن: ما ثُنِّىَ مرة بعد مرة، وقيل: فاتحة الكتاب، وهى سبع آيات، قيل لها: مثانٍ لأنها يُثْنى – بسكون الثاء – بها فى كل ركعة من ركعات الصلاة وتعاد فى كل ركعة، قال أبو الهيثم: سميت آيات الحمد مثانى، واحدتها مثناة، وهى سبع آيات، وقال ثعلب: لأنها تثنى مع كل سورة ... وفى نفس المعنى يضيف ابن منظور: وقال الفراء فى قوله (ﷻ): ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ**﴾ "الزمر: ٢٢" اى: مكرراً، أي: كرر

(١) أى: طَيَّاته أو مطاويه حين يُردّ بعضه على بعض أو يُثَنَّى.

فيها الثواب والعقاب[1]. وينقل عن أبى عبيد قوله: وسمى القرآن مثانى لأن الأنباء والقصص ثُنيت فيه. **ومعنى خامس** مأخوذ من الثناء – فيقول ابن منظور فى وصف الفاتحة بالمثانى: ويجوز أن يكون –والله أعلم – من المثانى مما أُثْنِيَ به على الله – تبارك وتقدس – لأن فيها حمد الله وتوحيده وذكر ملكه يوم الدين، ومعنى سادس قريب من المعنى الرابع، وهو قول ابن منظور: والمثانى من أوتار العود: الذى بعد الأول، واحدها مَثْنَى ... فالأوتار التى بعد الوتر الأول تعد – بصورة ما – تكريراً له وقياما بنفس وظيفته.

**وَيُرَدَّد ابن فارس فى معجمه:** مقاييس اللغة مَدْلُولاتٍ قريبة مما ورد فى اللسان من بينها هذا المدلول الوثيق الصلة بهذا الموضوع، حين يقول: والمثناة: ما قُرِئ من الكتاب وكُرِّرَ – قال الله تعالى﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي**﴾ أراد أَنَّ قراءتها تثنى وتكرر، ويردد الإمام الزمخشرى فى أساس البلاغة تقريباً نفس المدلولات ومن عباراته: وتَثَنَّى فى صدرى كذا أى: تردد، والإمامان الزمخشرى وابن فارس أسبق زمناً بالطبع من العلامة ابن منظور، لكنى بدأت باللسان لأنه أكثر استقصِاءً وتوسُّعاً من جهة، ولأنه يورد من آراء العلماء ممن سبقوا على ابن فارس والزمخشرى من جهة أخرى.

وفى الصحاح للجوهرى وتاج العروس للزبيدى تَتَرَدَّدُ نفس المدلولات السابقة للمادة على وجه العموم، مع العلم بأن لهذه المادة فى المعاجم السابقة مدلولات أخرى لكنها بعيدة عن الموضوع، وذلك كالثُّنْيَا بالثاء المشددة المضمومة والنون

(١) معانى القرآن: للفراء ٢/ ٤١٨ تحقيق ومراجعة: محمد على النجار، مطبعة: دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ط ٣ ١٤٢٢هـ- ٢٠٠٢م.

الساكنة وهى ما يُسْتَثْنى من جملة الشىء، والثَّنِىَّ والثنيَّة المتعلقان بالأسنان – ونحو ذلك –(١).

## المطلب الأول: المثانى صفة للقرآن

تَعَرَّضَ الْمُفَسَرون لبيان المقصود بالمثانى مرتين:

**مرة من خلال قوله تعالى:** ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ**﴾، وهو الذى تقع المثانى فيه صفة لطائفة من القرآن الكريم أو لسورة محددة منه.

**ومرة من خلال قوله تعالى:** ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ**﴾ "الزمر: الآية: ٢٣" وهو الذى تقع المثانى فيه صفة لكتاب الله كله.

وحول (المثانى) كما وردت فى هاتين الآيتين يدور المطلبان الأول والثانى من هذا المبحث.

*أما* **المطلب الأول** – كما يظهر من عنوانه – فيَخْتَصُّ بالمثانى كما وردت فى آية سورة الزمر، وأما **المطلب الثانى** فسوف يَخْتَصُّ – إن شاء الله – بالمثانى كما وردت فى آية سورة الحجر.

**وأبدأ هذا المطلب** بالتعرض لأهم آراء المفسرين الواردة فى سياق تناولهم لقوله تعالى: ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً**﴾ على النحو التالى:

---

(١) يراجع فى مادة (ثنى) المصباح المنير ١/ ٨٥ طبع: المكتبة العلمية بيروت، والمعجم الوسيط ١/ ٢١٠ مجمع اللغة العربية، وتهذيب اللغة للأزهرى ٥/ ١٠٨، ولسان العرب ١٤/ ١١٥ طبع: دار صادر بيروت، ومختار الصحاح ص٩٠ طبع بيروت، ١/ ٣٧٨: ٣٨٢ تقديم: الشيخ عبد الله العلايلى، إعداد وتصنيف: يوسف خياط، طبع: دار لسان العرب بيروت، ويراجع أيضاً نفس المادة فى غير ما ذكر.

**الرأى الأول:** وأساس هذا الرأى أن القرآن (مثانٍ) بمعنى أن التكرير والترديد من أبرز سماته فى صيغه وتعبيراته وأخباره وقصصه وتوجيهاته، **وأزيد ذلك إيضاحاً من كلام المفسرين:**

**يقول الضحاك:** (مثانى: ترديد القول ليفهموا عن ربهم (ﷻ)، ويقول عكرمه، والحسن: ثنى الله فيه القضاء، وزاد الْحَسَنْ: تكون السورة فيها آية وفى السورة الأخرى آية تشبهها)[١].

**وأوضح من ذلك قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم:** (مثانى: مُرَدَّد، رُدِّد موسى فى القرآن وصالح وهود والأنبياء (عليهم السلام) فى أمكنة كثيرة)[٢]. وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: (مثانى) قال: القرآن يشبه بعضه بعضاً، ويُرَدَّد بعضه على بعض[٣]. وقال الشهاب الألوسى بما هو أوضح وأكثر تفصيلا فى هذا الرأى: [والمراد بكونه (متشابها)][٤] هنا تشابه معانيه فى الصحة والأحكام والابتناء على الحق والصدق واستتباع منافع الخلق فى المعاد والمعاش، وتناسب ألفاظه فى الفصاحة، وتجاوب نظمه فى الإعجاز، وما أشبه هذا بقول العرب فى الوجه الكامل حُسْناً: وجه متناصف كأن بعضه أنصف بعضاً فى القسط من الجمال،

---

(١) ينظر فى ذلك: جامع البيان ٢٣/ ٢٤٩: ٢٥٠ برقم ٢٣١٨٩ و ٢٣١٩٠، والدر المنثور ٥/ ٣٥٨، وتفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٠.

(٢) ينظر فى ذلك: جامع البيان ٢٣/ ٢٥٠ رقم ٢٣١٩٤، والدر المنثور ٥/ ٣٥٨، وتفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٠.

(٣) ينظر فى ذلك: جامع البيان ٢٣/ ٢٤٩ رقم ٢٣١٨٨، الدر المنثور ٥/ ٣٥٨، وتفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٠.

(٤) أحب أن أوضح أن تفسير مثانى لا ينفك عن تفسير متشابها فى هذه الآية، وسوف يظهر فيما بعد أهمية هذا الربط بينهما.

وقوله تعالى: (مثانى) صفة أخرى لـ(كتاباً) أو حال أخرى منه، وهو جمع (مُثَنَّىً) بضم الميم وفتح النون المشددة على خلاف القياس[١]، إذ قياسه (مُثَنَّيات) بمعنى مُرَدَّد ومُكَرَّر لما كرر وثنى من أحكامه ومواعظه وقصصه، وقيل: لأنه يثنى فى التلاوة، وَجُوِّز أن يكون جمع (مَثْنى) بالفتح مخففاً من التثنية بمعنى التكرير والإعادة كما كان قوله تعالى: ﴿**ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ**﴾ "الملك: الآية: ٤" بمعنى كَرَّةً بعد كَرَّةٍ[٢]. وكذلك لُبَّيْك وسَعْدَيْك[٣]، والمراد أنه جمع لمعنى التكرير والإعادة، كما ثُنِّى ما ذكر[٤] لذلك، لكن استعمال المثنى فى هذا المعنى أكثر لأنه أول مراتب التَّكْرَار[٥]][٦].

---

(١) الذى ثبت فى المعاجم كما سبق من قبل أن مثانى جمع (مَثْنَاة) بفتح فسكون، أو (مِثْناة) بكسر فسكون، وقد نقل الألوسى رأيه هذا عن الزمخشرى فى الكشاف/ ٣٤٤ طبع: دار عالم المعرفة.

(٢) أى: ليس المقصود بـ"كرتين": مرتين فقط، بل المقصود التكرار.

(٣) جاء فى (الصحاح) مادة (لبب): أن أَلَبَّ – بالباء المشددة المفتوحة – بالمكان إلباباً بمعنى أقام به ولزمه، وأن (لبيك) مثنى على معنى التأكيد، أى أنا مقيم على طاعتك إقامةً بعد إقامةٍ. وجاء فى مادة (سعد): أن سعديك من الإسعاد وهو المعاونة، وقولهم (سعديك) أى إسعاداً لك بعد إسعاد، والذى يقصده الألوسى أن قولنا: (لبيك وسعديك) يراد منه التكرار، وليس مجرد مرتين كما سبق أن ذكرت فى كرتين.

(٤) يقصد بذلك: كرتين ولبيك وسعديك.

(٥) أى: استعمال المثنى فى مثل كرتين ولبيك وسعديك وحنانيك الذى يرمز إلى تكرار الطلب أو الابتهال فى كل منها، حيث إن التكرار يبدأ من أول إعادة للشىء أو من تثنيته.

(٦) روح المعانى ٨/ ١٤/ ١١٦، ١٣/ ٢٣/ ٣٨٢.

**وبهذا الرأى** أيضاً قال كثير من المفسرين كالإمام الطبرى، والقرطبى . وأبى حيان، وأبى السعود العمادى على اختلاف بينهم فى العبارات والتفاصيل](١).

**الرأى الثانى:** وعماده أن القرآن (مثان) بمعنى أنه يُكْثِر من ذِكْر الأمور أزواجاً أو متقابلات مثنى مثنى، وفى ذلك يقول الإمام ابن كثير: [وقال بعض العلماء ويروى عن سفيان بن عيينة معنى قوله تعالى: ﴿**مُتَشَابِهاً مَّثَانِيَ**﴾ إن سياقات القرآن تارة تكون فى معنى واحد فهذا من المتشابه، وتارة تكون بذكر الشىء وضده كذكر المؤمنين ثم الكافرين، وكصفة الجنة ثم صفة النار وما أشبه هذا فهذا من المثانى كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ**﴾ "الانفطار: ١٣- ١٤"، وكقوله (ﷻ): ﴿**كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ**﴾ إلى أن قال ﴿**كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ**﴾ "المطففين الآيات: ٧-١٨" ﴿**هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ**﴾ إلى أن قال ﴿**هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ**﴾ ص: الآيات: ٤٩- ٥٥"](٢).

*وهذا الرأى هو اختيار* الإمام فخر الدين الرازى وفيه يقول: (وبالجملة فأكثر الأشياء المذكورة وقعت زَوْجَيْن زَوْجَين مثل: الأمر والنهى، والعام والخاص، والمُجْمَل والمُفَصَّل، وأحوال السماوات والأرض، والجنة والنار، والظلمة والضوء، واللوح والقلم، والملائكة والشياطين، والعرش والكرسى، والوعد والوعيد، والرجاء والخوف، والمقصود منه بيان أن كل ما سِوَى الْحَقِّ زَوْجٌ، ويدل على أن كل شىء مُبْتَلى بِضِدِّه ونقيضه، وأن الفرد الأحد الحق هو الله سبحانه)(٣).

---

(١) ينظر: تفسير الطبرى ١٢/ ٢٣/ ٢٤٩: ٢٥٠، والقرطبى ٨/ ٢٢٢، وأبى حيان ٩/ ١٩٥، وأبى السعود ٤/ ٤٦٦.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٥٠.

(٣) التفسير الكبير للفخر الرازى ١٣/ ٤٢٩: ٤٣٠ طبع: دار الغد العربى.

**الرأى الثالث:** يقول بأن القرآن (مثان) لأنه يُثَنَّى فى التلاوة فلا يُمَلُّ، وهو أحد الأقوال التى حكاها الإمامان الزمخشرى والألوسى[١]، وذكره أيضاً مصَنِّفُوا (معجم ألفاظ القرآن الكريم) الصادر عن مجمع اللغة العربية ضمن آراء عدة لم يرجِّحوا أيًّا مِنْها[٢].

**وهذا الرأى – مع الرأى التالى** – يَسْتَلْهِمَان قول الرسول (ﷺ) فى حديث له عن القرآن: (..لا يَشْبَع منه العلماء ولا يَخْلق على كثرة الرد ولا تنقضى عجائبه ...)[٣].

**الرأى الرابع:** فحواه أن القرآن مثان لما يَتَرَدُّدُ ويَتَجَدَّدُ فيه من العجائب والأسرار والفوائد حالاً بعد حال، وهو من اجتهادات صاحب (تاج العروس) خلال حديثه المطول[٤] عن مادة (ثنى)، وهو ما ورد أيضاً كما أشرت فى معجم مجمع اللغة العربية.

---

(١) ينظر: الكشاف ٣/ ٣٤٤، روح المعانى ١٣/ ٢٣/ ٣٨٢.

(٢) تراجع مادة (ثنى) فى هذا المعجم، والآراء الأخرى التى ذكروها ثلاثة: أحدها: الرأى الثانى الذى سبق ذكره، وثانيها: الرأى الرابع الذى سأذكره، وثالثها: مأخوذ من الثناء لاشتمال القرآن على ما هو ثناء على الله.

(٣) المذكور جزء من حديث طويل أخرجه الإمام الترمذى فى كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء فى فضل القرآن ٥/ ٢٠ رقم ٢٩٠٦ من حديث على بن أبى طالب، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده مجهول، وفى الحارث مقال، والدارمى فى كتاب: فضائل القرآن، باب: فضل من قرأ القرآن ٢/ ٢٩٤: ٢٩٥ رقم ٣٣٢٦ وفى إسناده: أبو المختار الطائى، قال على بن المدينى: لا يُعرف. وقال أبو زعة الرازى: لا أعرفه. وفيه أيضاً ابن أخى الحارث الأعور. قال عنه الذهبى: لا يدرى من هو، وليس له عند الترمذى سوى هذا الحديث، وفيه أيضاً: الحارث بن عبد الله. حاشية ٢٩٠٦ فى سنن الترمذى ٥/ ٢٠ طبع: دار الحديث القاهرة.

(٤) ينظر رأيه فى: تاج العروس ١٠/ ٦٠ طبع: دار الحياة.

**والرأى الأخير** ذكره مُصَنِّفوا هذا المعجم اعتماداً على الربط بين المثانى وثناء القرآن على الله، لَمْ أَطَّلِع عَلَيْه لدى أحد من المفسرين – حسبما قَرَأْتُ – خلال حديثهم عن المثانى صفة للقرآن، وإنما ذكره بعضهم خلال الحديث عن المثانى صفة للفاتحة، وَفَرْقٌ بين الْأَمْرَيْن كما سَيَظْهَرُ فى هذا المطلب.

**وبعد ما سبق من أقوال أهل اللغة والتفسير** يمكن القول بأن الرأى الأول فى معنى المثانى هو أرجح الآراء السابقة بشهادة أهل اللغة، وشهادة المفسرين.

**أما أهل اللغة**، فقد اسْتَعْرَضْتُ من قبل مادة (ثنى) فى أَهَمِّ معاجم اللغة، وبَيَّنْت أَنَّ التَّكريرَ والتَّرْدِيدَ معنى واضح من معانيها الأساسية. **وأما المفسرون**، فإن كثيراً منهم – كما سبق – قال بهذا الرأى، وقَلِيلاً مِنْهُم ذَكَرَهُ مع غيره من الآراء دون ترجيح، أَوْ رَجَّحَ عليه بعضها.

**هذا عن الرأى الأول، أما الثانى والثالث والرابع**: فالواقع أنها وإن كانت مَرْجُوحة، لا تُصَادِم الرأى الراجح، ولا تُصَادم القرآن فى طبيعته أو فى مقاصده، فهى ذات دلالات صحيحة فى ذاتها، وإن كان غيرها أرجح حسب قواعد التفسير، فالقرآن يُثَنَّى ويُرَدَّدُ فى التلاوة بالفعل كما لا يُثَنَّى أو يُرَدَّد كتابٌ غيره، هذه خاصَّةٌ أَصِيلَةٌ من خَصَائصه التى يَتَفَرَّد بها.

وعلى كثره تلاوته وترديده لا يَبْلَى ولا يُمَل ولا تَنْفد أسراره لا يشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضى عجائبه كما وصفه رسول الله (ﷺ).

**وهو كذلك** يُقْرِن كثيراً بين الأزواج والمتقابلات فى أساليبه، مَثْنَى مَثْنَى، وهذه الخاصية البلاغية التى تعتمد على الأضداد لها أثرها المعروف فى تجلية الحقائق وتحريك النفوس.

لذلك فلا مانع من القول بمثل هذه الآراء تَجَوُّزاً وتوسُّعاً، وخاصة أن مدلول اللفظ (مثانى) يَحْتَملها وَيَتَّسع لها، وذلك شأن كثير من ألفاظ القرآن وتعبيراته التى تَتَّسع

لأكثر من معنى أو إيحاء دون أن يَصْطَدم بعضها ببعض، وهذه خاصية من خصائص إعجازه البيانى(١).

وقديماً وَجَّهَ سيدنا على بن أبى طالب ابن عمه عبد الله بن العباس (ﷺ) لمحاجة الخوارج، وطلب منه أن يحاجهم بالسنة، فقال له: يا أمير المؤمنين فأنا أعلم بكتاب الله منهم، فىُ بيُوتنا نَزَل، قال: صدقت، ولكن القرآن حَمَّال ذُو وُجُوه، تقول ويقولون، ولكن خاصِمْهُم بالسنن فإنهم لم يجدوا عنها محيصا..(٢).

**وبعد:** فإن من يَنْظر إلى هاتين الصفتين ﴿ **مُتَشَابِهاً مَّثَانِيَ** ﴾ نظرة شاملة متكاملة لتَبَيُّن وجه الصلة بينهما، يجد أنها فى الحقيقة صلة حميمة أحسَّ بها كثير من المفسرين والباحثين إحساساً جعل بعضهم يكاد يمزج بين هاتين الصفتين مَزْجاً أثناء تَعَرُّضه لآية سورة (الزمر)، ومن ذلك قول ابن عباس – كما سبق – فى كلمة (**مَّثَانِيَ**): (القرآن يُشْبه بعضه بعضاً، وَيُرَدُّ بعضه على بعض)، فإن الذى يقرأ ذلك يظن أنه يفسر (**مُتَشَابِهاً**)، وليس (**مَّثَانِيَ**)، لأن المثانى لديه لا تبدو إلا نوعاً من المتشابه، حيث إنها ظاهرة أسلوبية مَبْنِية على التَّكْرَار، والتَّكْرَار يؤدى بالضرورة إلى التشابه.

**وقوله: يُرَدُّ بعضه على بعض معناه:** يستعان ببعضه على بعض، أو يُفَسِّر بعضه بعضاً، وذلك لا يَتَأَتَّى إلا بِنَوْعٍ من ترديد حقائقه ومعانيه خلال سُوَرِهِ كلها فى سياقات وأساليب متنوعة، فَيُجْمَع بينها لتكامل أطرافها، ويستعان بكل منها على غيره فى التفسير.

---

(١) ينظر: الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى. النوع التاسع والثلاثون فى معرفة الوجوه والنظائر ١/ ١٨٥ طبع: دار عالم المعرفة.

(٢) السابق نفس الجزء والصحيفة.

**وفى ذلك أيضاً يقول الشيخ سيد قطب:** (... هذا الكتاب المتناسق الذى لا اختلاف فى طبيعته ولا فى اتجاهاته، ولا فى روحه، ولا فى خصائصه، فهو (متشابه) وهو (مثانى) تكرر مقاطعه وقصصه وتوجيهاته ومشاهده، ولكنها لا تختلف ولا تتعارض، إنما تُعَاد فى مواضع متعددة وِفْقَ حكمة تتحقق فى الإعادة والتَّكْرَار فى تناسق وفى استقرار على أصول ثابتة متشابهة، لا تعارض فيها ولا اصطدام)[1].

**من هذا الكلام** يتبين أن الامتزاج بين الصفتين واضح أيضا كل الوضوح، ومع هذا الإمتزاج، ومع وجود ما يؤدى إليه لا يمكن أَنْ أُلْغِيَ الفرق تماماً بين الصفتين، بل أُمَيِّزُ بينهما كما مَيَّزَ القرآن حين ذكرهما صفتين له وليس صفة واحدة، وكما ميزت اللغة بينهما أيضاً فى مادتين من موادها – شَبَهَ وثَنَى – وليس فى مادة واحدة.

وذلك أَنَّ كتاب الله مُتَشَابه، أى يُشْبه بَعْضُه بعضاً، أو يَسْتَوى بعضه مع بعض فى إعجازه وَرِفْعَةِ بَيَانِه، وفى تَنَاسُق حقائقه ومدلولاته، وتكاملها وتصديق بعضها بعضا، وفى تَرَدُّد هذه الحقائق أيضاً، وانتشارها فى عموم سُوَرِهِ وآياته وِفْقَ طريقة مخصوصة وأهداف مقصودة.

وهذا يعنى أن هناك أسباباً ومظاهر متعددة لكون القرآن متشابهاً، من أهمها ما ذَكِرْتُه عن تردد حقائقه وانتشارها فى عموم سوره وآياته، فهذا التردد من أسباب تشابهه، كما أنه أيضاً مَظْهَر بارزٌ من أبرز مظاهره.

## المطلب الثانى: المثانى صفة لسورة الفاتحة

(١) فى ظلال القرآن للشيخ قطب ٥/ ٣٠٤٨ طبع: دار الشروق.

فيما سبق تناولت (المثانى) من خلال آية الزمر، وتَبَيَّن أنها تقع فيها صفة لكتاب الله كله، ولكى تتم دلالتها فى ميدان التفسير أتناولها فى قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ**﴾ "الحجر"٨٧" ومدلولها هنا أنها صفة لِطَائفةٍ من القرآن فقط.

*وَسَأَعْرِضُ هنا* أهم االآراء التى طُرِحَتْ فى بيان المراد بالسبع المثانى فى آيتنا هذه التى عَرَض لها الكثير من المفسرين، وَمِمَّنْ توسع فى هذه الآراء منهم الإمام الفخر الرازى، وأهم ما جاء لديه فى ذلك: [أن قوله تعالى: ﴿**آتَيْنَاكَ سَبْعاً**﴾ يحتمل أن يكون سبعاً من الآيات، وأن يكون سبعاً من السور، وأن يكون سبعاً من الفوائد، وليس فى اللفظ ما يدل على التعيين . ثم عرض (~) فى بيان المراد من هذه السبع أقوالاً عِدَّةً، أهمها: **القول الأول**: وهو قول أكثر المفسرين: أنه فاتحة الكتاب، وهو قول عمر وعلى وابن مسعود وأبى هريرة والحسن وأبى العالية ومجاهد والضحاك وسعيد بن جبير وقتادة[1]، وروى أن النبى (ﷺ) قرأ الفاتحة وقال: (هى السبع المثانى) رواه أبو هريرة[2]، والسبب فى وقوع هذا الاسم على الفاتحة أنها سبع آيات، وأما السبب فى تسميتها بالمثانى فوجوه: **الأول**: أنها تثنى

(١) ينظر: جامع البيان: ٨/ ١٤/ ٧١: ٧٦ الأرقام من: ١٦١٠١: ١٦١٢٣.

(٢) المذكور: جزء من حديث عن أبى سعيد بن المعلى بلفظ: (أم القرآن هى السبع المثانى) أخرجه البخارى فى كتاب: التفسير باب: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ فتح البارى ٨/ ٢٣٢ رقم ٤٧٠٣، والترمذى فى كتاب: تفسير القرآن باب: ومن سورة الحجر وقال: هذا حديث حسن صحيح ٥/ ١٤١: ١٤٢ رقم ٣١٢٤، وأحمد فى: المسند جـ٣ برقم ٩٣٥٦، جـ٨ رقم ٨٦٩٠، والبغوى: فى شرح السنة رقم ١١٨٢، وفى التفسير ٣/ ٦٤، وذكره ابن جرير فى مقام الدلالة على أولى الأقوال بالصواب: فى جامع البيان ٨/ ١٤/ ٧٧ برقم ١٦١٣٠، والسيوطى فى: الدر المنثور ١/ ٩ وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه فى تفاسيرهم.

فى كل صلاة، بمعنى أنها تقرأ فى كل ركعة. **الثانى:** قال الزجاج: سميت مثانى، لأنها يثنى بعدها ما يقرأ معها[١]. **الثالث:** سميت آيات الفاتحة مثانى، لأنها قسمت قسمين اثنين، والدليل عليه ما روى أن النبى (ﷺ) قال: (يقول الله تعالى قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ...) والحديث مشهور[٢] **الرابع:** سميت مثانى، لأنها قسمان: ثناء ودعاء، وأيضاً النصف الأول منها حق الربوبية وهو الثناء، والنصف الثانى حق العبودية وهو الدعاء ... **الخامس:** سميت بالمثانى لأن كلماتها مثناة مثل: ﴿**الرَّحمنِ الرَّحِيمِ ... إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَستَعِينُ اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ**﴾ وفى قراءة عمر: (غير المغضوب عليهم وغير الضالين)[٣]][٤].

**والإمام الفخر الرازى** (~) فى هذا الوجه يقصد ما يوجد من تكرير فى ألفاظ الفاتحة نَفْسَها، كتكرير ﴿**الرَّحمنِ الرَّحِيمِ**﴾ فى البسملة ثم فى الآية الثالثة، أو أن التكرير فى كلمة ﴿**الرَّحمنِ**﴾، ثم ﴿**الرَّحِيمِ**﴾ باعتبار اشتراكهما فى معنى الرحمة،

---

(١) معانى القرآن وإعرابه للزجاج: ٣ / ١٨٥ طبع: دار الحديث القاهرة تحقيق: د/ عبد الجليل شلبى.

(٢) المذكور جزء من حديث أخرجه: مسلم فى كتاب: الصلاة باب: وجوب قراءة الفاتحة ٢/ ٣٣٦: ٣٣٧ رقم ٣٨، وأبو داود فى: الصلاة باب: ١٣٢رقم ٨١٩ و٨٢٠ و٨٢١، والترمذى فى كتاب: تفسير القرآن باب: ومن سورة فاتحة الكتاب، وقال: هذا حديث حسن ٥/ ٤٤: ٤٥ رقم ٢٩٥٣.

(٣) القراءة ذكرها البغوى فى: تفسيره: ١/ ٧٧، والزمخشرى فى: الكشاف ١/ ١٢وعزاها إلى عمر وعلى، والطبرسى فى: مجمع البيان ١/ ٣٩ عن عمر، والقرطبى عن عمر وأُبَى بن كعب فى: الجامع لأحكام القرآن ١/ ١٤٧، وابن عادل فى: اللباب عن عمر ١١/ ٤٨٦، وهى قراءة شاذة لمخالفتها المتواتر يراجع فى ذلك: معجم القراءات القرآنية. إعداد د/ أحمد مختار عمر، د/ عبد العال سالم كرم ١/ ١٥٨ عالم الكتب.

(٤) يراجع: التفسير الكبير: ٩/ ٤٥١: ٤٥٥.

وإن كان بينهما فَرْقٌ نَصَّ عليه المفسرون[1]، وكذلك تكرير ﴿**إِيَّاكَ**﴾ مرتين، وتكرير ﴿**الصِّرَاطَ**﴾ مرتين، وتكرير ﴿**غَيْرِ**﴾ مرتين حسب القراءة التى ذكرها. والخامس: سميت الفاتحة بالمثانى لاشتمالهاعلى الثناء على الله تعالى، وهو حمد الله وتوحيده وملكه، كما هو واضح فى آياتها الأربع الأولى .. **القول الثانى**: إن (السبع المثانى) هى السبع الطوال، وهذا قول ابن عمر وسعيد بن جبير فى بعض الروايات ومجاهد[2]، وهى: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة والأنعام، والأعراف، والأنفال، والتوبة معا، قالوا: وسميت هذه السور مثانى، لأن الفرائض والحدود والأمثال والعبر ثنيت فيها ...

**القول الثالث**: إن (السبع المثانى) هى السور التى هى دون الطوال والمئين وفوق ٱلمُفَصَّل[3] واختار هذا القول قوم، واحتجوا عليه بما روى عن ثوبان أن

---

(١) وهو أن ﴿الرَّحْمنِ﴾ خاص برحمة الله التى تشمل جميع خَلْقِه فى الدنيا كَرِزْقه وَنِعَمِه التى يَنَال منها المؤمن والكافر، أما ﴿الرَّحِيمِ﴾، فيتعلق برحمة الله التى لا تَشْمَل إلا عباده المؤمنين فى الآخرة. ينظر فى ذلك: جامع البيان ١/ ٨٥ وما بعدها، وتفسير ابن كثير ١/ ٢٠.

(٢) ينظر: جامع البيان: ٨/ ١٤/ ٩٦: ٧١ الأرقام من ١٦٠٨٧: ١٦١٠٠، ومعالم التنزيل للبغوى ٣/ ٦٥.

(٣) الطوال: هى السور السبع التى ذكرت فى القول الثانى وإن أَدْخَل البعض فيها سورة (يونس) بدلاً من (الأنفال والتوبة) والمئون: هى السور التى تزيد كل منها على مائة آية أو تقاربها، والمثانى: ما ولى المئين، والمفصل قصار السور وهى – على بعض الآراء – من سورة (ق) إلى سورة (الناس). ينظر: الإتقان: النوع الثامن عشر: ١/ ٨٤، وجامع البيان: ١/ ٧٠.

رسول الله (ﷺ) قال: (إن الله أعطانى السبع الطوال مكان التوراة، وأعطانى المئين مكان الإنجيل، وأعطانى المثانى مكان الزبور، وفضلنى ربى بالمفصل)[1].

**القول الرابع:** إن (السبع المثانى) هى القرآن كله، وهو منقول عن ابن عباس فى بعض الروايات، وقول طاوس، قالوا: ودليل **هذا** القول قوله تعالى: ﴿**كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ**﴾ "الزمر: ٢٣" فوصف كل القرآن بكونه مثانى، **ثم اختلف القائلون بهذا القول** فى أنه ما المراد بالسبع، وما المراد بالمثانى، فذكروا فيه وجوها: **أحدها:** أن القرآن سبعة أسباع، **ثانيها:** أن القرآن مشتمل على سبعة أنواع من العلوم: التوحيد، والنبوة، والمعاد، والقضاء والقدر، وأحوال العالم، والقصص، والتكاليف. **ثالثها:** أنه مشتمل على الأمر والنهى، والخبر والاستخبار، والنداء، والقسم، والأمثال، وأما وصف كل القرآن بالمثانى، فلأنه كرر فيه دلائل التوحيد والنبوة والتكاليف][2].

**ومن يتأمل ذلك** يجد أن أساس التنوع فى الأقوال هو- كما قال الإمام الفخر- أن آية سورة الحجر قالت: ﴿**آتَيْنَاكَ سَبْعاً**﴾ دون تحديد للمراد بالسبع، وهذا ما جعل البعض يرى أنها الفاتحة لأن آياتها سبع، وما جعل آخرين يقولون: إنها السور الطوال لأنها أيضاً سبع.

---

(١) الحديث: جيد بطرقه وشواهده، أخرجه: أحمد فى المسند ٤/ ١٠٧ وقال الأرنؤوط: إسناده حسن، والطبرانى فى: الكبير ٢٢/ ٧٦، ١٨٥و ١٨٦، والطحاوى فى: المشكل ١٣٧٩ من طرق عن عمران القطان عن قتادة عن أبى المليح بهذا الإسناد، وهذا إسناد حسن فى الشواهد، وقال الهيثمى فى المجمع: ٧/ ٤٦ رواه أحمد، وفيه عمران القطان وَثَّقَهُ ابن حِبَّان وغيره، وضَعَّفه النسائى وغيره، وباقى رجاله ثقات.

(٢) ينظر: التفسير الكبير: ٩/ ٤٥١: ٤٥٤.

**أما من قال:** إنها السور المسماة بالمثانى، فلا سند له من ناحية العدد، لأن هذه السور وإن لم ينضبط عددها[1] إلا أنها بالتأكيد أكثر من سبع، وسَنَدُه إنما هو من جهة التسمية فقط، أى تسمية طائفة من سُوَرِ القرآن بالمثانى، كما سميت طائفة أخرى بالسبع الطوال، وثالثة بالمئين، ورابعة بالمفصل.

**وقد اختلف العلماء** أنفسهم فى تعليل هذه التسمية، **فقيل:** إن المثانى ما ولى المئين لأنها ثنتها، أى كانت بعدها فهى لها ثوان، والمئون لها أوائل. وقيل: لتثنية الأمثال فيها بالعبر والخبر، وقيل: هى السور التى ثنيت فيها القصص[2].

**أما التعليل الأول** من هذه التعليلات فغير دقيق، لأن كل طائفة من السور يصح أن تكون (مثانى) بالقياس إلى السور التى تقدمتها، وأما ما يَخْتَصُّ بتثنية الأمثال والأخبار والقصص، فربما يبدو سمة بارزة فى هذه الطائفة من السور، وإن لم يقتصر عليها بالتأكيد، وإنما هو مُنْتَشِرٌ فى مُعْظَم سور القرآن الطويل منها والمتوسط والقصير.

*أما* **القول الرابع:** وهو (أن السبع المثانى) هى القرآن كله، فلا يَعْدُو أن يكون تِكْرَاراً لما هو معروف من مجيئ (المثانى) صفة للقرآن كله فى قوله تعالى: ﴿..**كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَّثَانِيَ**﴾، وأصحاب هذا الرأى قد شَقُّوا على أنفسهم، فَتَكَلُّفوا تكلفاً شديداً كَىْ يُفَسروا لنا: كيف يكون القرآن سبعاً؟!، وهو ما جعلهم يقولون بهذه الأسباع التى ذكروها من الأقسام أو العلوم أو غير ذلك، وواضح أنهم ذكروها لاستيعاب مشكلة العدد.

وقد ضَعَّفَ الإمام الفخر الرازى نفسه هذا الرأى من وجه آخر، وهو أنه: [لو كان المراد بالسبع المثانى القرآن، لكان قوله: (**وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ**) عطفاً للشىء على

(١) وذلك لتداخلها مع نوع (المفصل) الذى لم يُتَّفَقَ على عَدَدِه أيضاً.

(٢) ينظر: الإتقان ١/ ٨٤.

نفسه، وذلك غير جائز ...][1] أى إذا كانت السبع المثانى هى القرآن، فما الداعى لأن يعطف عليها القرآن؟

**وخلاصة القول** فى هذا الرأى أن المثانى قد وَرَدَت بالفعل صفة للقرآن كله، وذلك مستفاد من آية سورة (الزمر) التى سبق الحديث عنها، وليس بِمُسْتَفاد من آية سورة (الحجر) مناط الحديث هنا.

**هذا عن القولين الثالث والرابع، أما القول الثانى:** فإنه – وإن كان له سند من اَلْعَدد – غير راجح أيضاً، لأن السور السبع الطوال ليست أَوْلَى من غيرها بصفة المثانى، وإذا كانت السور المسماة بالمثانى لا تستأثر بهذه الصفة – كما سبق أن ذَكَرْت – فمن باب أولى أَلاَّ تَسْتَأْثِر بها طائفة أخرى من السور.

وفى مناقشتى للأقوال السابقة بدأت بالأضعف لِأَقْرُغَ فى النهاية لِلْأَقْوى، وهو أن الله تعالى قال: ﴿**سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي**﴾ والفاتحة بالفعل سبع آيات.

**وبالرجوع إلى** أقوال المفسرين وَجَدْتُ أن جُمْهُورَهم يؤيد هذا الرأى[2]، حيث نقله الإمام ابن جرير الطبرى عن عمر وعلى وابن مسعود وابن عباس (ﷺ)[3]، وكذلك عن إبراهيم النخعى وعبد الله بن عبيد بن عمير وابن أبى مليكة وشهر بن حوشب والحسن البصرى ومجاهد وقتادة، وهو الرأى الذى اختاره ابن جرير أيضاً[4].

---

(١) التفسير الكبير ٩/ ٤٥٤.

(٢) ينظر فى الرأى الذى اخترته: جامع البيان ١/ ٧٠، ٨/ ١٤/ ٧٧، ومعالم التنزيل ١/ ٧٠، ٣/ ٦٤: ٦٥، وابن كثير ١/ ٨: ٩، ٣/ ٥٥٧.

(٣) يراجع: جامع البيان ٨/ ١٤/ ٧٦: ٧٧، الأرقام من ١٦١٢٤ إلى ١٦١٢٩.

(٤) يراجع: جامع البيان: ٨/ ٧١/ ٧٦ الأرقام من ١٦١٠١ إلى ١٦١٢٣.

**وأهم من ذلك** الأحاديث الصحيحة التى تَنُصُّ على أن الفاتحة هى السبع المثانى، ومن هذه الأحاديث كما أثبتها ابن جرير والبغوى وابن كثير وغيرهم – ما أخرجه البخارى بسنده عن أبى سعيد بن المعلى قال: قال رسول الله (ﷺ): (الحمد لله رب العالمين هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته)[1]، وما رواه الإمام أحمد بإسناده عن أبى هريرة عن النبى (ﷺ) أنه قال (عن الفاتحة): (هى أم القرآن وهى السبع المثانى وهى القرآن العظيم)[2].

***وأنتقل إلى أمر آخر، وهو:*** **وصف الفاتحة بالمثانى، ومدى انطباق هذا الوصف أو سر إطلاقه عليها،**

***فأقول:*** فيما سبق أن نَقَلْتُه ذَكَر الإمام الفخر الرازى خمسة أوجه فى بيان هذا السر، أعتقد أَنَّ أَغْلبها لا يَتَعارضُ بَعْضه مع بَعْض، أو أنَّ السورة– بكيانها الخاص ومكانتها المتميزة – يمكن أن تَسْتَوْعَبهَ، لأنَّ سِمَةَ التكرير والترديد من أَبْرز سِمَاتها بالفعل فى الصلاة فلا تَصِحُّ صلاة بدونها، وخارج الصلاة كى نُعَلِّمَها أهلنا وأولادنا وكل مسلم حتى تصح صلاتهم، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب كما فى القاعدة الشرعية.

وسمة التكرير والترديد فى ألفاظها وتراكيبها ظاهرة أيضاً كما فى الوجه الخامس، وذلك مما يُسْهِم فى تشكيل نَغَمها وإيقاعها الخاص ٱلمُحَبَّب إلى النفس.

**وهى أيضاً** قد قسمت نصفين اثنين بين الله وبين عبده، فَنِصْفُها له سبحانه ونصفها لعبده كما جاء فى الحديث، والنصف الذى لعبده كله فى الثناء على الله وتمجيده كما يظهر فى آياتها الأربع الأولى، وكل ذلك هو ما ورد فى الوجهين الثالث والرابع.

---

(١) الحديث: سبق تخريجه.

(٢) الحديث: سبق تخريجه.

ولو قَصَرْتُ اختيارى على وَجْه واحِدٍ لاخْتَرْت الوجه الأول، لأنه يَسْتَوْعب هذه الوجوه الأخرى، بينما لا يوجد من بينها ما يستوعبه، **وبمعنى آخر أقول:** إن خصائص الفاتحة ومكانتها المتميزة هى ما جعلها تُثَنَّى وتُكَرَّر أو هى مما أكسبها صفة المثانى فكأن هذه الصفة – فى حد ذاتها – تَكْفِى للتَّذْكير بمكانة هذه السورة، وبأسباب ملازمتها للمسلم فى حياته وعبادته، **ولعل ذلك** ما جعل هذا الوجه هو ٱلْمُقَدَّم على غيره لدى كثير من المفسرين فى أثناء حديثهم عن هذه المسألة كما اتضح من قبل.

**أما الوجه الثانى** فإنه أَضْعَف الوجوه، لأنه لا شَىْءَ يَسْنده من خصائص السورة نفسها، كما أنه ليس بشرط ولا بِرُكْنٍ أن تُثَنَّى الفاتحة فى الصلاة بقرآن بعدها[1].

**اجتهاد آخر فى السبع المثانى**[1]:هذا الاجتهاد يَنْبُع أساساً من المكانة المعروفة لسورة الفاتحة فى الأحاديث المشهورة التى جعلت الإمام ابن تيمية يتحدث عن

---

(١) قراءة القرآن بعد الفاتحة فى الصلاة ليس بواجب لا فى الفرض ولا فى النافلة، ولا فى الجهر، ولا فى السر، ولا لمسبوق ولا لغيره، فعن عطاء قال: قال أبو هريرة: (فى كل صلاة قراءة، فما أَسْمَعنا النبى (ﷺ) أسمعناكم، وما أَخْفَا منا أخفيناه منكم، ومن قرأ بأم الكتاب فقد أجزأت عنه ومن زاد فهو أفضل) أخرجه البخارى فى كتاب: الأذان باب: القراءة فى الفجر. فتح البارى ٢/ ٢٩٤ رقم ٧٧٢، ومسلم فى كتاب: الصلاة باب: وجوب قراءة الفاتحة ٢/ ٣٣٨ رقم ٣٩٦، وقال الإمام النووى: قوله: (ومن قرأ بأم الكتاب أَجْزَأَت عنه، ومن زاد فهو أفضل) فيه دليل الفاتحة وأنه لا يُجْزى غيرها، وفيه استحباب السورة بعدها، وهذا مُجْمَعٌ عليه فى الصُّبْح والجمعة وٱلأُولَيَيْنْ من كل الصَّلوات، وهو سُنَّةٌ عند جميع العلماء، وحكى القاضى عياض (~) عن بعض أصحاب مالك وجوب السورة وهو شاذ مردود. صحيح مسلم بشرح النووى ٢/ ٣٤٢ حقَّقَه وخَرَّجَه وفَهْرَسَهُ: عصام الصبابطى وغيره طبع: دار الحديث القاهرة، وينظر أيضاً: فتح البارى ٢/ ٢٩٥ طبع: دار الريان للتراث، ونيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار ٢/ ٢٢٦: ٢٢٧ طبع: مكتبة دار التراث القاهرة.

(الفاتحة) فيقول: [فهى أفضل سورة فى القرآن، قال النبى (ﷺ) فى الحديث الصحيح: لم ينزل فى التوراة ولا الإنجيل ولا الزبور ولا القرآن مثلها، وهى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته ... وفضائلها كثيرة جداً[٢] وقد جاء مأثوراً عن الحسن البصرى – رواه ابن ماجة وغيره – أن الله أنزل مائة كتاب وأربعة كتب، جَمَع عِلْمَها فى الأربعة، وجَمَع عِلْمَ الأربعة فى القرآن، وجمع علم القرآن فى المُفَصَّل، وجمع علم الْمُفَصَّل فى أم القرآن، وجمع عِلْمَ أُم القرآن فى هاتين

(١) بعد البحث اطمأننت إلى أن السبع المثانى هى (الفاتحة) وَرَضِيتُ به بعد مناقشة الآراء التى طرحت فى سر تسميتها بالمثانى، وَرَجَّحْت منها هذا الرأى الذى سبق الحديث عنه، لكن يوجد اجتهاد آخر فى سر هذه التسمية، أرى أَنَّ له أهميةً فى موضوع هذا المطلب، وهو اجتهاد لا يُصَادِمُ نصاً مأثوراً، ولا يُصَادم اللغة أيضاً، بل إَّن رُوحَ النصوص المأثورة تؤيده، وأيضاً ما ورد عن المثانى فى اللغة يؤيده.

(٢) موضوع (أفضل القرآن وفضائله) من مباحث الإتقان للسيوطى، وقد ناقش (~) فى بدايته السؤال القائل: هل فى القرآن شىء أفضل من شىء؟ ومضمون ما ذكره فى ذلك من أقوال العلماء: أن التفاضل فى سور القرآن وآياته لا يعنى أن بعضها أقل شأناً من بعض فى بيانه أو إعجازه، وإنما يقع هذا التفاضل تبعاً لمضمون بعض السور والآيات ومدى خطره فى تبليغ الرسالة وتوطيد أركانها، كأن تشتمل على دلائل التوحيد أو على أعظم أسماء الله الحسنى أو على أهم التوجيهات المؤثرة فى حياة المسلم... ونحو ذلك – وقال (~) فى نفس المبحث: (ولا تنافى أيضاً بين كون (الفاتحة) أعظم السور وبين الحديث الآخر أن (البقرة) أعظم السور، لأن المراد به ما عدا (الفاتحة) من السور التى فصلت فيها الأحكام وضربت الأمثال وأقيمت ٱلْحُجَج إذ لم تشتمل سورة على ما اشتملت عليه أى أن: (الفاتحة) أعظم سورة فى القرآن من حيث إنها أصله وأساسه، أما (البقرة) فهى أعظم سورة بين السور التى فصلت ما جاء فى (الفاتحة). ينظر: الإتقان ٢/ ١٩٩ وما بعدها.

الكلمتين ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وإن علم الكتب المنزلة من السماء اجتمع فى هاتين الكلمتين الجامعتين][1].

ولأن علم القرآن كله يرجع إلى سورة الفاتحة، أَوْ قَدْ أُودِع فيها، ففى مثل هذه الأحاديث والأقوال أركز على وصف هذه السورة بأنها أم القرآن، كما هو معنى كلام ابن تيمية، وهو الذى وَضَّحَه ابن كثير أيضاً فى قوله عن سر تسمية الفاتحة بأم الكتاب: [قيل: إنما سميت بذلك لرجوع معانى القرآن كله إلى ما تضمنته. قال ابن جرير: والعرب تسمى كل جامع أمراً أو مُقَدِّمٍ لأمر، إذا كان له توابع تتبعه هُوَ لها إمام جامع: أُمَّاً، فتقول للجلدة التى تجمع الدماغ: أُمُّ الرَّأْس، ويسمون لواء الجيش ورايتهم التى يجتمعون تحتها أما[2]][3].

**وقد بذل المفسرون** جهوداً عظيمة عن كيف أن (الفاتحة) هى (أم الكتاب) على جهة التفصيل، وكيف أن معانى القرآن كله ترجع إلى ما تضمنته، ومن هؤلاء الإمام ابن القيم[4]، ومما قاله (~): [اعلم أن هذه السورة اشتملت على أمهات المطالب العالية أَتَمَّ اشتمال، وتَضَمَّنَتْها أَكْمَلَ تَضَمُن فاشتملت على التعريف بالمعبود تبارك وتعالى بثلاثة أسماء، مرجع الأسماء الحسنى والصفات العليا إليها، ومدارها عليها، وهى: (الله والرب والرحمن)، وَبِنِيَتِ السورة على الإلهية

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٤/ ٦: ٧ طبع: المكتب التعليمى السعودى.

(٢) يراجع: جامع البيان فى: القول فى تأويل أسماء فاتحة الكتاب ١/ ٧٣.

(٣) تفسير ابن كثير ١/ ٨: ٩.

(٤) هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن أيوب، صاحب ٱلمُصَنَّفات الكثيرة، مدارج السالكين، وأعلام الموقعين عن رب العالمين، وزاد المعاد فى هدى خير العباد، توفى (~) سنة ٧٥١هـ. ينظر ترجمته فى: الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلانى ٤/ ٢١: ٢٢ نشر: دار الكتب الحديثة القاهرة، وطبقات المفسرين لشمس الدين الداودى ت ٩٤٥هـ. ٢/ ٩٥: ٩٧ نشر: دار الكتب العلمية بيروت.

والربوبية والرحمة، فـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مبنى على الإلهية، و ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على الربوبية، وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم بصفة الرحمة، والحمد يتضمن الأمور الثلاثة: فهو المحمود فى إِلَهِيَّته، وربوبيته، ورحمته، والثناء والمجد كَمَالَانِ لجده، وتضمنت إثبات المعاد، وجزاء العباد بأعمالهم حسنها وسيئها، وتَفَرُّد الرب تعالى بالحكم إذ ذاك بين الخلائق، وكون حكمه بالعدل، وكل هذا تحت قوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾](١).

وَيَمْضى (~) على هذه الشاكلة فى بيان مقاصد السورة، ثم يُفَصِّلها تفصيلاً دقيقاً ناصعاً يستمد دقَّتَهُ ونصاعته من مختلف الآيات القرآنية التى لا يفتأ يَعْرِض عليها مقاصد سورة الفاتحة، أو يَعْرِضُها على هذه المقاصد ليوضح كلاً منهما بالآخر.

فالفاتحة إذاً بمثابة المقدمة للكتاب كله، والمقدمة تُمَهِّد دائماً لما يأتى بعدها وتشير إليه وتُجْمِل مقاصده، فالذى أُجْمِل وَرُكِّز فى هذه الفاتحة هو ما يُثَنَّى ويردد فى الكتاب كله، وهذا ما أريد الوصول إليه، فلا مانع إذا من القول بأن وصف الفاتحة بالمثانى يعنى أيضاً تَضَمُّنَها الإجمالى لكافة الأغراض والمعانى التى تُفَصَّل وتُرَدَّد بعد ذلك فى سائر القرآن، ولعل هذا ما يُيَسِّرُ فهم سبب قول رسول الله (ﷺ) عن الفاتحة فى الأحاديث التى سبق ذكرها إنها (وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ) ذلك لأنها أصله وأساسه(٢).

(١) التفسير القيم ص٧ جمع: محمد أويس الندوى تحقيق: محمد حامد الفقى طبع: دار الكتب العلمية بيروت ١٣٩٨هـ- ١٩٩٨م.

(٢) الأساس من أسماء سورة (الفاتحة) التى ذكرها السيوطى، وقد أحصى لها نيفاً وعشرين اسْماً، وقال: (إن ذلك يدل على شرفها، فإن كثرة الأسماء دالة على شرف المسمى). ينظر: الإتقان: النوع السابع عشر ١/ ٧٠.

**أضف إلى ذلك** أن آية سورة الحجر: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ**﴾، والتى اختلف المفسرون فيها حول عطف (الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ) على (سَبْعاً) هل هو من قبيل عطف الكل على الجزء أو العام على الخاص أم أن العطف هنا لا يعنى المغايرة؟ أى يمكن أن يكون المعنى: ولقد مّنَنَّا عليك يا محمد بإعطائك هذه السورة العظيمة وهى سورة الفاتحة، بإعطائك القرآن العظيم أيضاً، ويكون ذكر الفاتحة مستقلة عن سائر القرآن على سبيل التخصيص لشرفها وعلو قدرها، كما يقول القائل: جاء عُمَر والصحابة مع أنه واحد منهم لكنَّه أُفْرِد لمكانته الخاصة، أو يكون المعنى: ولقد مننا عليك يامحمد بإعطائك سورة عظيمة هى القرآن ذاته لِتَضَمُّنِها جميع أصوله وأهدافه، **لكن البعض اعترض على هذا الوجه الثانى** بأن الأصل فى اللغة أن العطف يقتضى المغايرة، فلابُدَّ أن يكون المقصود بالقرآن العظيم فى الآية غير المقصود بالسبع المثانى(١).

**إلا أن** بعض المفسرين نَصَر هذا الوجه الثانى، ومنهم الإمام: الألوسى الذى احتج له بالحديث الذى نص على أن الفاتحة هى السبع المثانى والقرآن العظيم، واحتج له أيضاً باللغة التى لم يُعْدم فيها ما يدل على جواز الفصل بين صفات الشيء الواحد بحرف العطف، كما فى قول الشاعر:

---

(١) على الناظر لهذا الاعتراض أن يميز بين هذا الاعتراض، وقول الفخر الرازى سابقاً: [لو كان المراد بالسبع المثانى القرآن لكان قوله: ﴿وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾، عطفاً للشيء على نفسه] لأن ٱلعَلَّامة الفخر قال ذلك اعتراضاً على القائلين بأن السبع المثانى هى القرآن ذاته، وليس اعتراضاً على القائلين بأنها الفاتحة... فليراجع كلامه حتى لا يكون خلط بين الأمرين.

إلى الملك القرم وابن الهمام[1]، وأضاف الإمام الألوسى قائلاً: [إن كونهما – أى السبع المثانى والقرآن – الفاتحة أَوْفَق لمقتضى المقام لِمَا مَرَّ فى تخصيص ﴿الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ بالسورة[2]، وأشد طباقا للواقع فلم يكن إذ ذاك قد أوتى (ﷺ) القرآن كله أ.هـ][3].

فالإمام الألوسى يقول بالتخصيص فى آية سورة الحجر قياساً على التخصيص فى أول آية منها، وهى قوله تعالى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾، وَقَصْدُه أن الله جل شأنه حين قال ذلك فى أول السورة لا يَعْنى بقوله: (تِلْكَ) الكتاب كله أو القرآن كله، بل يَعْنى سورة (الحجر) خصوصاً، أى: آيات هذه السورة التى تُتْلَى عليك هى آيات كتابه وقرآنه المنزل عليك، أو: تلك السورة آيات من كتاب الله وقرآنه المنزل عليك، فكذلك الأمر فى آية السبع المثانى ليس القصد فيها أن الله آتى رسوله (ﷺ) الكتاب كله، بل الفاتحة التى هى الكتاب، وقال (~) بأن هذا الفهم أشد طباقاً للواقع، لأنه (ﷺ) لم يكن حين نزول سورة الحجر قد أُوتِيَ القرآن كُله، وإنما أُوتى بَعْضه فقط، حيث كان ينزل نُجُوماً – كما هو معروف – وليس جملة واحدة.

## المطلب الثالث: المثانى جهود تراثية

من المعلوم أن مُصْطَلح علوم القرآن يتعلق بكل ما يتعلق أو يتصل بدراسة كتاب الله وفَهْمه من أى جانب من جوانبه، وفى ذلك صُنِّفت كتب كثيرة، من

(١) عجزه: وليت الكتيبة فى المزدحم. وهو: من المتقارب بلا نسبة فى: الإنصاف فى مسائل الخلاف ٢/ ٤٦٩، وخزانة الأدب ١/ ٤٥١، ٥/ ١٠٧، ٦/ ٩١، وشرح قطر الندى: ص٣٩٦.

(٢) يراجع: ما نقله عن صاحب الكشف قبل ذلك ٨/ ١٤/ ٤: ٥، ورأيه أيضاً بعد ذلك ص١١٦.

(٣) روح المعانى ٨/ ١٤/ ١١٧: ١١٨.

أشهرها: "البرهان فى علوم القرآن" لبدر الدين الزركشى "ت ٧٩٤هـ" و"الإتقان فى علوم القرآن" لجلال الدين السيوطى "ت ٩١١هـ" .

وفى هذين الكتابين، وغيرهما توجد عشرات المباحث فى كل ما يعين على دراسة كتاب الله تعالى وتفسيره، مما يتعلق بكيفيات نزوله وأسبابه وأزمنته ومكيّه ومدنيَّه وغريبه ووجوه إعجازه وأصول تفسيره، وغير ذلك كثير.

**أما هذا المبحث** الذى أسميه بالمثانى القرآنية، فإن أقرب مبحث إليه هو ما يُسَمَّى فى هذين الكتابين وأمثالهما بعلم المتشابه[١] أو الآيات المشتبهات[٢] أى ما يتشابه أو يتماثل أو يتكرر من ألفاظ القرآن وآياته، ولعله من المعلوم أيضاً أن هذا (المتشابه) ليس هو (المتشابه) الذى يقابل ٱلمُحْكَم فى قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ**﴾ "آل عمران: ٧" فإن المتشابه فى هذه الآية يقصد به الملتبس[٣] الذى لا يَتَّضِح مدلوله من آيات القرآن، مقابل المحكم أى القاطع الواضح فى دلالته من هذه الآيات، وذلك علم آخر من علوم القرآن هو "المحكم والمتشابه" [٤].

وقد نال هذا المبحث – الذى عُنِىَ به – من أسلافنا عناية كبيرة تدل على جهودهم العظيمة التى بذلوا فيها أقصى ما فى وسعهم من الدرس والتَّفَقُّه فى كتاب الله وتَتَبُّعٌ كل ما يعين على تفسيره والدفاع عنه وإظهار إعجازه، وقد كان من دواعى اهتمامهم بهذا العلم ما رَأَوْه من تَعَلُّق بعض ٱلمُتَشَكِّكِين والمُلْحِدين بموضوعه، لِيَطعَنُوا من خلاله فى القرآن، مُدَّعين أن ما به من المتشابه اللفظى غير مفهوم أو تكرار لا هدف له.

---

(١) هذا هو النوع الخامس فى كتاب: (البرهان) للزركشى.

(٢) هذا هو النوع الثالث والستون فى: (الإتقان) للسيوطى.

(٣) كما يقال: اشتبه الأمر أو تشابه علَىَّ.. أى: ٱلْتَبَسَ.

(٤) ينظر على سبيل المثال: النوع الثالث والأربعين من (الإتقان).

**لهـــذا فـــإن** القاضـى عبـد الجبـار بـن أحمـد – وهـو مـن أئمـة المعتزلـة (ت ٤١٥هـ) – لم ينس مناقشة هذا الطعن ضِمْنَ ما ناقشه وَرَدَّ عليه فى كتابه "تنزيه القرآن عن المطاعن"،[١] ولم يَنْسَه أيضاً الإمام المعتزلى الآخر الشريف المرتضـى "ت ٣٤٦هـ" فـى كتابـه "دررالفوائـد وغـرر القلائـد" المعـروف بأمـالى المرتضـى[٢]، ولـيس ذلـك فحسـب، بـل إنـه ظهـرت كتـب ومصـنفات مسـتقلة مُخَصَّصَـة لهـذا الموضـوع، أَعْطَـى عنهـا السـيوطى فِكْرة خـلال حديثـه عـن النـوع الثالث والستين فى كتابه[٣] حيث قال: [أفرده بالتصنيف خلق، أولهم فيما أحسب الكسائى، ونظمه السخاوى، وألف فى توجيهه الكرمانى كتابه "البرهان فى متشابه القرآن" وأَحْسَن منه "درة التنزيل وغرة التأويل" لأبى عبد الله الرازى، وأَحْسَن من هذا "مـلاك التأويـل" لأبـى جعفر بـن الزبيـر ولـم أقف عليـه، وللقاضـى بـدر الـدين بـن جماعـة فـى ذلـك كتـاب لطيـف سماه "كشـف المعـانى عـن متشـابه المثـانى" وفـى كتابى "أسرار التنزيل" المسمى "قطف الأزهار فى كشف الأسرار" من ذلك الجم الغفير][٤].

**هذا والمشهور المتداول بين يَدَىَّ من هذه المصنفات ثلاثة: أولها: كتاب:** "درة التنزيل وغرة التأويل فى بيان الآيات المتشابهات فى كتاب الله العزيز" لأبى عبد الله محمد بن عبد الله، المعروف بالخطيب الإسكافى المتوفَّى ٤٢٠هـ[٥] وهو أقدم

---

(١) ينظر: ص١٥٤ من هذا الكتاب، طبع: دار النهضة الحديثة، بيروت.

(٢) ينظر: ١/ ١٢٠ وما بعدها من هذا الكتاب تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم طبع: الحلبى ١٩٥٤.

(٣) وهو عن (الآيات المشتبهات) كما أشرت من قبل.

(٤) الإتقان ٢/ ١٤٦.

(٥) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب عالم باللغة والأدب من أهل أصبهان توفى سنة ٤٢٠هـ. ينظر: الوافى لصلاح الدين بن خليل بن أيبك الصفدى ٣/ ٣٣٧ طبع: بيروت، وإرشاد الأريب ٧/٢٠.

كتاب فى موضوعه بين يدى اليوم، وقد اعترف له بالفضل والسبق الذين طرقوا هذا الموضوع من بعده، ومنهم الكرمانى وابن الزبير اللذان سأعرف بكتابيهما فيما بعد.

وقد بَيَّنَ الخطيب الهدف من كتابه حيث ذكر فى مقدمته أن الله تعالى بعد أن خَصَّهَ بإكرامه وعنايته وشَرَّفَه بإقراء كلامه ودرايته دَعَتْه (دواع قوية) يبعثها نظر ورويـة، فـى الآيـات المتكـررة بالكلمـات المتفقـة والمختلفـة، وحروفهـا المتشـابهة المتعلقة والمنحرفة، تَطَلُّباً لِعَلَامات تَرْفَع لبس إشكالها، وتخص الكلمة بآياتها دون إشكالها(١).

وقـد لحـظ أحـد البـاحثين(٢) أن صـاحب "كشـف الظنـون" وصـاحب "هدايـة العـارفين" قد نَسَبَا خَطَأً كتاب الإسكافى هذا إلـى ٱلْمُفَسِّر المعروف فخر الدين الرازى صاحب التفسير الكبير، وصَحَّحَ هو ذلك مشيراً إلى أن الإتفاق بين الفخر والإسكافى فى الكُنْيـة والمَوْطن رُبَّمَا كان من أسباب هذا الخطأ، فكلاهما يُكَنَّى بأبى عبد الله، وكلاهما أيضاً رازى نسبة إلى منطقة الرى.

لكن هنـاك لَبْساً من جهـة أخرى، وهـو عن أبـى عبـد الله الـرازى الـذى ذكره السيوطى – فيما نقلته عنه سابقاً – وذكر له كتاباً بنفس عنوان كتاب الإسكافى الذى أَتَحَدَّثُ عنه، فَهَلْ يَقْصِد السيوطى بهذا الاسم الخطيب نفسه باعتبار ما مَرَّ عن الكنية والموطن أَمْ أَنَّه بالفعل شَخْص آخر غير الخطيب وله كتابٌ بنفس العنوان؟

(١) ص ٧: ٨ من الكتاب، دار الآفاق الجديدة بيروت ١٣٩٣هـ- ١٩٧٣م.

(٢) هو الأستاذ سعيد الفلاح فى مقدمة تحقيقه لملاك التأويل ١/ ١٠٦ طبع: دار الغرب الإسلامى بيروت ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

**الحق أن** الذى ظهر لى حتى الآن هو أن أبا عبد الله الرازى هذا شخص آخر غير الخطيب، وله كتاب فى المتشابه اللفظى أيضاً بنفس عنوان كتاب الخطيب، ***وذلك لسببين:***

**الأول:** يتبين من حديث السيوطى عن أحد أمثلة الآيات المشتبهات المتعلقة بقوله تعالى: ﴿**وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً**﴾ "البقرة: ٨٠"، وقوله تعالى: ﴿**أَيَّا مَاً مَّعْدُودَاتٍ**﴾ "آل عمران: ٢٤" حيث ذكر فى ذلك رَأْياً لابن جماعة، ثم قال: [ وقال أبو عبد الله الرازى: إنه – أى: التشابه أو الاختلاف بين (مَّعْدُودَةً) و (مَّعْدُودَاتٍ) من باب التَّفَنُّن الأُسْلُوبى فقط دونما سبب موضوعى – من باب التفنن ][(١)].

**ولما رَجَعْتُ إلى** كتاب الخطيب الإسكافى فى هذه المسألة لَمْ أَجِدْ لهذا الرأى أثراً، وإنما له فيها جواب آخر[(٢)].

**الثانى:** يَتَبَيَّن من حديث الأستاذ عبد القادر عطا محقق كتاب (البرهان فى متشابه القرآن) للكرمانى، حيث قال فى مقدمة تحقيقه: (ولا نعلم إلى الآن كتاباً مطبوعاً عالج هذا الباب من الدراسة القرآنية مُسْتَقْصِياً ومُسْتَقِلاً إلاَّ كتاب الإسكافى (درة التنزيل وغُرَّة التأويل) وقد أطال القول فيه وغمض مقصده، وأغفل كثيراً من مواضع التَّكْرَار[(٣)]، وإلا (دُرَّة التنزيل) للرازى وهو مطبوع بمصر مختصراً غير واف بالغرض)[(٤)].

---

(١) ينظر: الإتقان ٢/ ١٤٧، ومعترك الأقران فى إعجاز القرآن للسيوطى ١/ ٨٥ تحقيق: على محمد البجاوى طبع: دار الفكر العربى.

(٢) ينظر: درة التنزيل ص٢٢.

(٣) مع أن الأستاذ عبد القادر عطا من ٱلمُحَقِّقين الأُمَنَاء الجادِّين إلا أَنَّه هنا قد قَسَا على كتاب: الخطيب التى تَشْهَد مادته – لمن اطلع عليها – بغير ذلك، ويَشْهد له العلماء أيضاً كما ذكرت.

(٤) ص١٤ من مقدمة تحقيقه للبرهان، طبع: دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.

وهذا كلام واضح يدل على أن هناك كتابَيْن مُخْتَلفين لشخصين أيضاً، وإن حملا عنوانا واحدا[1].

**ثانيها: كتاب:** "البرهان فى توجيه متشابه القرآن" لتاج القراء محمود بن حمزة بن نصر الكرمانى المتوفى تقريباً سنة ٥٠٥هـ، وقد عَرَّفَنَا الكرمانى بغرضه من كتابه هذا فقال: (فإن هذا كتاب أَذْكُر فيه الآيات المتشابهات التى تكررت فى القرآن وألفاظها متفقة، ولكن وقع فى بعضها زيادة أو نقصان، أو تقديم أو تأخير، أو إبدال حرف مكان حرف، أو غير ذلك مما يوجب اختلافاً بين الآيتين أو الآيات التى تكررت من غير زيادة ولا نقصان، وَأُبَيِّنُ ما السبب فى تكرارها، والفائدة فى إعادتها، وما الموجب للزيادة والنقصان، والتقديم والتأخير والإبدال، وما الحكمة فى تخصيص الآية بذلك دون الآية الأخرى، وهل كان يصلح ما فى هذه السورة مكان ما فى السورة التى تشاكلها أم لا، ليجرى ذلك مجرى علامات تزيل إشكالها، وتمتاز بها عن أشكالها ...)[2] ثم أشار فى نهاية مقدمته إلى جُهْد الخطيب الإسكافى فى الموضوع، وأنه سوف يحكى كلامه فيه إذا بلغ إليه ...،

(١) أُنَبهِّ إلى أن الأستاذ سعيد الفلاح قد أثار لَبْساً من نوع آخر حين نقل كلام السيوطى فى مقدمة تحقيقه ص١٠٦ – على هذا النحو: (ويقول السيوطى فى الإتقان: إن أولهم فيما أحسب الكسائى، وصنف فى توجيهه أبو عبد الله الرازى المعروف بالخطيب الإسكافى فهذا يُوهِمُ أَنَّ السيوطى هو صاحب القول بأن الرازى هو الخطيب، بينما لم يرد ذلك فى كلام السيوطى مطلقاً، فالظاهر أن الباحث قد خلط فى عبارته بين ما يعتقده هو فى المسألة وبين كلام السيوطى.

(٢) البرهان فى توجيه متشابه القرآن ص١٩: ٢٠.

وإن كان يَتَّضحُ من كلامه أنه لم يَطَّلع على كتاب الخطيب، وأَنَّ نَقْلَه عنه إنما هو من تفسير أبى مسلم الأصفهانى أحد غلاة المعتزلة المتوفى سنة ٤٥٩هـ[١].

**ثالثها: كتاب** أبى جعفر بن الزبير [٢]، الذى سماه: "ملاك التأويل القاطع بذوى الإلحاد والتعطيل فى توجيه المتشابه اللفظى من آى التنزيل"، وهذا الكتاب يعد أضخم المصنفات فى موضوعه، وأكثرها توسعاً واستقصاءاً، وقد بَيَّن صاحبه غرضه منه فى مقدمته بعبارات لا تختلف فى مضمونها عما سبق لدى الكرمانى والإسكافى، لكن الواضح أنه أكثر تحَمُّساً فى إقباله على موضوعه، وأكثر إدراكاً لخطره، وذلك ما يبدوا من عنوان كتابه، ومن قوله أيضاً فى مقدمته: إن موضوعه لم يَقْرَعْه أحد قبله (مع عظيم موقعه، وجليل مَنْزَعه، ومكانته فى الدِّين، وفتِّه

(١) السابق ٢٠: ٢١.

(٢) هو أحمد بن إبراهيم بن الزبير بن الحسن بن الحسين بن الزبير بن عاصم بن مسلم بن كعب بن مالك بن علقمة بن حبان بن مسلم بن علم بن مرة بن عوف الثقفى العاصمى الجيانى، وكنيته أبو جعفر، ولد فى مدينة جيان فى ذى القعدة عام سبع وعشرين وستمائة، تفوق (~) فى كثير من العلوم منها: التفسير، والحديث، والقراءات، والنحو، والتاريخ، له مؤلفات عدة منها: ملاك التأويل، والبرهان فى ترتيب سور القرآن، تعليق على كتاب: سيبويه، كتاب: الزمان والمكان، وغير ذلك كثير، توفى بغرناطة فى ربيع الأول سنة ثمان وسبعمائة للهجرة النبوية عن ثمانين عاما. ينظر فى ترجمته: الدرر الكامنة لابن حجر ١/ ٨٤ حيدر آباد الهند، شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى ١/ ١٦ القدسى القاهرة، معجم المؤلفين عمر رضا مجالة ١/ ١٣٨ المكتبة العربية بدمشق سوريا ١٩٥٧، الوافى بالوفيات للصفدى ٦/ ٢٢٢ طبع بيروت، شجرة النور الزكية لمحمد بن محمد مخلوف ٢١٢ السلفية القاهرة ١٣٤٩.

أعضاد ذوى الشك والارتياب من الطاعنين الملحدين ...)[1]، ثم أشار إلى كتاب الإسكافى وفضله، وإلى ما سوف يضيفه قائلاً: [... إلى أن وردَ علىَّ كتاب لبعض الْمُعْتَنين من حِلَّة المشارقة - نفعه الله - سمَّاه بكتاب: "**دُرَّة التنزيل وغُرَّةُ التَّأْوِيل**"، قرع به مغلق هذا الباب، وأتى فى هذا المقصد بِصَفْوٍ من التوجيهات لُباب ... وأحسن فيما سلك وسَنْ، وَحُقَّ لنا به - لإحسانِه - أن نَقْتَدِى ونستَنْ مُعْتمِداً عين ما ذَكَره من الآيات وَمُسْتَدركاً ماَ تَذَكَّرْتُه مما أغفله (~) من أمثالها من المتشابهات][2].

وكان ابن الزبير يتتَّبع بالفعل نفس المسائل والنصوص التى تَطَرَّق إليها الإسكافى، ناقلاً عنه أحياناً، ومضيفاً إليه من تأملاته واجتهاداته أحياناً أخرى[3] ثم إنه طَرَق أيضاً مسائل ونصوصاً أخرى لم يَطْرقها الإسكافى أصلاً، ويُصَدِّر كلا منها بعلامة (غ) رمزاً إلى (المُغْفل) الذى لم يتعرض له الإسكافى.

**وبالإضافة إلى ما سبق ذكره من الكتب أقول:** إن الإمام الزركشى "ت ٧٩٤هـ" فى كتابه "البرهان" قد بذل أيضاً جُهْداً طيباً فى هذا الموضوع[4] رغم أن هذا الكتاب مخصص لعلوم القرآن ومباحثه عموماً، وليس لواحد منها على وجه

---

(١) ينظر: ملاك التأويل ١/ ١٤٥ بتحقيق: سعيد الفلاح، ١/ ٤ بتحقيق: د. محمود كامل أحمد طبع: دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت لبنان ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.

(٢) ملاك التأويل ١/ ٥٠٤ دار النهضة، ١/ ١٤٦: ١٤٧ دار الغرب.

(٣) هناك أمثلة كثيرة على ذلك، من أوضحها تناول الخطيب الإسكافى للآيات ١٤٤، ١٤٩، ١٥٠ من سورة البقرة وما فيها من التوجيه المتكرر بشأن تغيير القبلة ص٣٦ من كتابه حيث تناولها ابن الزبير ١/ ٢٤٠ فأفاد من الإسكافى ثم توسع هو وأضاف إضافات طيبة فى أسرار هذه الآيات التى تعد من أبرز أمثلة المتشابه اللفظى فى القرآن.

(٤) وذلك فى النوع الخامس الذى أشرت إليه فى بداية هذا المطلب.

الخصوص، وأن الإمام السيوطى قد عنى بهذا الموضوع أيضاً فى "الإتقان" [١] وكتب عنه أيضاً فى كتابه "معترك الأقران فى إعجاز القرآن" تحت عنوان: (الوجه السادس من وجوه إعجازه مشتبهات آياته)[٢].

## المطلب الرابع: المثانى ضوابط اصطلاحية

فيما سبق تأكدت الصلة الوثيقة بين مدلول المثانى ومدلول التكرير أو الترديد، وقال جمهور المفسرين: إن القرآن مثان أى: تثنى أو تكرر فيه القصص والمواعظ والأخبار والتوجيهات، وعلى هذا فالتوصل إلى مفهوم محدد للمثانى مرتبط إذا بالتوصل إلى مفهوم محدد للتكرار.

**والذى تبين لى** أن المفهوم السائد للتكرار لا يزال مفهوما مضطرباً غامضاً، الأمر الذى يعوق القدرة على اكتشاف وظائفه الحقيقية التى يمكن أن يؤديها فى ميدان النص القرآنى الذى يبدو فيه ظاهرة واضحة.

إن الغالب على هذا المفهوم السائد أن التَّكْرَار يتعلق بترديد المعنى بالألفاظ أو الصيغ المتفقة فقط دون الألفاظ،أوالصيغ المختلفة بنوع أو آخر من أنواع الاختلاف التى يرد التَّكْرَار فيها تابعاً للإطناب – ضمن مباحث علم المعانى – مع بيان أغراضه المشهورة، كالتحذير والإغراء والمبالغة والقسم التَّحسُّر والفخر وزيادة الترغيب والتأكيد، وما شابه ذلك[٢].

---

(١) فى النوع الثالث والستين الذى أشرت إليه أيضاً.

(٢) يراجع فى هذه الأغراض وغيرها: البلاغة الواضحة لعلى الجارم ومصطفى أمين ص٢٤٩ وما بعدها طبع: دار المعارف ١٣٨٩هـ، والتكرير بين المثير والتأثير للدكتور عز الدين السيد ص٨٨ وما بعدها طبع: دار الطباعة المحمدية.

**والذى أراه** أن هذا المفهوم يُضَيِّق جداً من نطاق التَّكْرَار، ويؤدى إلى تَنْحِية كثير من الأساليب التى يمكن أن تدخل فى هذا النطاق، وهى التى يتم فيها تكرار المعنى مع اختلاف اللفظ أو تنوع العبارة.

**صحيح أن** اختلاف الألفاظ فى مثل هذه الأساليب يؤدى- مهما كان يسيرا- إلى اختلاف المعانى، لكن هذا الاختلاف لا يَنْقُصُ السمة الأصلية فى هذه الأساليب، وهى التَّكْرَار، لأنه يضيف أو يستكمل بعض زواياها أو يُثْرى وظائفها، ونحو ذلك.

إن هذا التَّكْرَار المتنوع – حسبما أرى – ظاهرة حقيقية على مستوى الطبيعة كلها وليس فقط على مستوى البيان الإنسانى، فَمَن تأمَّل ظاهرة التشابه فى شتَّى جوانب هذه الطبيعة يتضح له أن هذه الظاهرة إنما تقوم على تكرار صفة أو أكثر فى الصورتين المتشابهتين، وكلما كثر تكرار الصفات فيهما زاد التقارب أو التشابه بينهما، حتى يمكن أن يصل إلى حد التماثل أو التطابق، فهو إذاً تشابهٌ أو تكرار متنَوِّع ذو درجات متفاوتة[1] أدت إلى التشابه ولم تؤد إلى التطابق، فهما متشابهتان مختلفتان فى الوقت نفسه، متشابهتان بمقدار ما تكرر فيهما من الصفات، ومختلفتان بمقدار ما نقص من هذا التَّكْرَار.

وهذا التَّكْرَار المتنوع الذى يصل إلى الحد الذى يمتزج فيه الاتفاق مع الاختلاف هو أصل معروف من أصول بناء هذا الكون الذى نعيش فيه، وأيضاً سر من أسرار تفاعله وتجدده وحركته الدائبة، فلو كان كله متماثلاً لانتهى إلى

(١) ومثال ذلك: أن يرى الإنسان صورتين لشخصين من بُعدٍ فيظُن أنهما لشخص واحد، لكن حين يقترب منهما ويتفحصهما يتبين له أنهما متمايزتان وإن كانتا متشابهتين، لقد حدث بينهما تكرار فى الصفات بدرجة معينة أدت إلى التشابه فقط لا إلى التطابق التام.

الرتابة والملل والجمود، ولو كان مختلفاً لانتهى إلى الفوضى والتمزق، لكنه يمتزج دائماً فيكون التآلف والتفاعل والتجدد.

وبالنقل لهذه الصورة إلى ميدان البيان يتضح بجلاء الفرق بين هذا المفهوم للتكرار وبين مفهومه السابق الذى يحصره فى نطاق الألفاظ، فهو وفق هذا المفهوم – أى السابق – له وظائفه البيانية الهامة بلا شك، لكنه لا يعدو أن يكون لونا واحداً من ألوان هذا التَّكْرَار حسب مفهومه الشامل.

إن هذا المفهوم الأعمق للتكرار لا يتجلى من الناحية المادية الحسية كما يتجلى فى خَلْقْ الله وصَنْعَته، ولا يتجلَّى من الناحية الفنية البيانية كما يتجلى فى كتاب الله وكلامه، وَمِنْ ثمَّ فإن القرآن الكريم هو وحده القادر على تجلية هذا المفهوم وتجسيده وتقديم أعظم ثماره فى ميدان البيان، وهو ما أطمح فى إيضاحه – بعون الله وتوفيقه – خلال هذا البحث، أو تقريبه على الأقل من ذَوِق القارئ المتدبرّ لكتاب الله الكريم.

**وأرى** أن القول هذا من جانب بعض المدافعين عن القرآن – دون تَنَبُّه لهذا المفهوم – للحساسية الشديدة تجاه ظاهرة التَّكْرَار التى تلجئهم إلى البعد عن إثباتها أو حصرها فى أَضْيق نطاق، خَشْية أن يُتَّهَم القرآن بالإطناب ٱلْمُمِل أو بالترديد الذى لا فائدة من ورائه ولا جديد فيه أيضاً[1].

(١) دَرَج البلاغيون على جَعْل التكرار نَوْعاً من الإطناب، ولما كان العرب محبين للإيجاز، فقد خشى كثيرون أن يعاب القرآن به، فرفضوه، قال بهاء الدين أحمد بن على السبكى مفرقاً بين التكرار والإطناب: (ليس بإطناب، بل هى ألفاظ، كلٌ أريد به غير ما أريد بالآخر) عروس الأفراح ٣/ ٢١٩ مطبعة: بولاق مصر ١٣١٨هـ، وينظر: معترك الأقران ١/ ٣٤٤، وقال أبو زهره: (بجوار طول السورة وقصرها – مع الإعجاز فى كلها – قد نجد فى القرآن تكراراً، وهو من تصريف البيان، لا من الإطناب المجرد، وإنما هو لمقاصد، ولتوجيه النظر، ومناسبة المقام) المعجزة الكبرى ص١٦٠ دار الفكر العربى مصر ١٩٧٧، ولم يقنع د/ عبد المنعم السيد حسن بالتفرقة بينهما، بل تعرض لما بينهما من

**أقول:** بأن هذا يؤدى إلى الوقوع فى خطأ آخر، وهو إنكار خاصية من خواص القرآن الثابتة بنصه، والثابتة أيضاً من واقع أساليبه، حتى لو اختلف البعض على مدلول كلمة (المثانى) فهذه مثلاً حقيقة الإمهال أو (الأجل المسمى) الذى قدره الله قبل محاسبة خلقه، تَتَرَدَّدُ فى قوله تعالى ﴿**وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ**﴾ "هود: ٣" وفى قوله تعالى: ﴿**قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى**﴾ "إبراهيم: ١٠" وفى قوله تعالى: ﴿**وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى**﴾ "طه: ١٢٩"، وفى قوله تعالى: ﴿**وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ**﴾ "العنكبوت: ٥٣".

وهذه هى عادة الاتِّباع الأعمى للآباء تَتَرَدَّد فى القرآن وَتُذَمُّ فى قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ**﴾ "البقرة: ١٧٠"، وفى قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ**﴾ "المائدة: ١٠٤"، وفى قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ "الأعراف: ٢٨"، وفى قوله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ**﴾ "الزخرف: ٢٣".

فهذا الترديد الواضح فيما ذُكِر ونحوه مما سَيُذْكر لا يمكن لأحد إنكاره مع أن أصل المعنى واحد وسمة التكرير أو الترديد لا تُنْكَر[1]، لكن المدلول المتكرر له وقعه المتجدد فى كل مرة بِحُكْم ما يَطْرأ على صياغته أو مَوْقعه أوعلاقاته

---

صلة، فقال: (التكرار إعادة الشىء مرارا، والإطناب تأدية المعنى المراد بلفظ أَزْيَدَ مما يستحقه لفائدة، وذكر أن كلمة (الفائدة) هى التى تفرق بين الإطناب والتطويل...) ظاهرة التكرار فى القرآن الكريم ص١١٤ دار المطبوعات مصر ط ١٤٠٠/ ١٩٨٠.

(١) يراجع فى ذلك أيضاً بداية حديث الرافعى عن التكرار فى كتابه: إعجاز القرآن ص٢١٩: ٢٢٠ المكتبة التجارية بمصر ١٣٨٤هـ ١٩٦٥م.

السياقية من تغيرات، **ومن ثم** فإن هذه الظاهرة موجودة، ووجودها له دواعيه، وله أسراره ووظائفه وله دوره كذلك فى ميدان الإعجاز، وقد تنبه الكثير من البلاغيين لهذه الظاهرة القرآنية فأثبتوها ولم يُضَيِّعُوا وقتاً فى إنكارها، فشرعوا يدرسونها ويُنَقِّبون عن أسرارها، ورغم أن دراستهم هذه – فى عمومها – جاءت عابرة خاطفة، إلا أنها اقتربت كثيراً من مفهومها الصحيح، ***وإليك ما يدل على ذلك:***

**فهذا أبو عمرو الجاحظ** "ت ٢٥٥هـ" فى كتابه: "البيان والتبيين" يقول: (وليس التَّكْرَار عيًّا ما دام لحكمة كتقرير المعنى، أو خطاب الغبى أو الساهى، كما أن ترداد الألفاظ ليس بعَيٍّ ما لم يجاوز مقدار الحاجة ويخرج إلى العبث، وهذا القرآن قد رَدَّدَ قصة موسى، وهود وهارون وشعيب وإبراهيم ولوط وعاد وثمود، كما رَدَّدَ ذكر الجنة والنار وغيرها، لأنه خاطب جميع الأمم من العرب وأصناف العجم، وأكثرهم غبى غافل، أو معاند مشغول الفكر ساهى القلب)[1]، **ومن يتأمل نماذج التَّكْرَار التى أشار** إليها يجد أنها تدل على أن التَّكْرَار عنده لا ينحصر فى الألفاظ أو الصيغ المتماثلة المتطابقة، حيث إنَّ هذه النماذج التى ذكرها تتكرر فى القرآن مع تَنَوُّع كبير فى عرضها وأساليبها مهما كان فيها من بعض الألفاظ أو الصيغ المتماثلة.

**وهذا ابن قتيبة** "ت ٢٧٦هـ" فى كتابه: "تأويل مشكل القرآن" يقول فى خلال محاولته بيان الحكمة من التَّكْرَار فى القرآن: (... وكان أى الرسول (ﷺ) يبعث إلى القبائل بالسور المختلفة، فلو لم تكن الأنباء والقصص مثناة ومكررة لوقعت قصة موسى إلى قوم وقصة عيسى إلى قوم، وقصة نوح إلى قوم، وقصة لوط إلى قوم – فأراد الله بلطفه ورحمته أن يُشْهِر هذه القصص فى أطراف الأرض ويُلْقيها

(١) البيان والتبيين ٣/ ٣١٤ تحقيق: عبد السلام هارون طبع: الخانجى بالقاهرة.

فى كل سمع، وَيُثبتها فى كل قلب، ويزيد الحاضرين فى الإفهام والتحذير)[1]، ثم يقول بعد ذلك: (وأما تكرار الكلام من جنس واحد وبعضها يجزئ عن بعض كتكراره فى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ وفى سورة الرحمن بقوله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فقد أعلمتك أن القرآن نزل بلسان القوم، وعلى مذاهبهم، ومن مذاهبهم فى التَّكْرَار إرادة التوكيد والإفهام، كما أن من مذاهبهم فى الإختصار إرادة التخفيف والإيجاز)[2].

**من هذا الكلام يظهر** أن ابن قتيبة يُسَمِّى هذا النوع الأخير بتكرار الكلام من جنس واحد، وذلك يَعْنى ضمناً أن فى ذهنه مقابلاً آخر لهذا النوع لا يكون الكلام فيه من جنس واحد متوافق ومتطابق تماماً، بل يكون فى صيغ متنوعة بينها تشابه وإن اختلف بعضها عن بعض بالزيادة والنقص أو بالتقديم والتأخير أو بالإجمال والتفصيل، أو غير ذلك من طرق التنوع فى الصياغة والأساليب، وهذا المقابل هو ما عبر عنه – فى أول كلامه – بتكرار الأنباء والقصص على سبيل التعبير عن الشىء بأَظْهَر ما فيه، فإن تكرار الأنباء والقصص من أبرز مظاهر المثانى القرآنية بالفعل كما أَنَّ تنويع القرآن فى طريقة عرضها أمر واضح أيضاً.

**وهذا ضياء الدين بن الأثير** "ت ٦٣٧هـ"[3] يَتَحَدَّث أيضاً عن التكرير فيقول: (واعلم أن هذا النوع من مَقَاتِلِ علم البيان، وهو دقيقُ المأْخَذ، وحدُّه هو دلالة اللفظ

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص٢٣٤ تحقيق: السيد أحمد صقر. طبع: دار التراث بالقاهرة ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م، وطبع: المكتبة العلمية بيروت لبنان.

(٢) السابق: ص٢٣٥.

(٣) هو أبو الفتح نصر الله ضياء الدين بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى، المعروف بابن الأثير الجزرى ٱلمَوْصِلى، وُلِدِ فى يوم الخميس العشرين من شعبان عام ثمان وخمسين وخمسمائة، بجزيرة ابن عمر، له من المؤلفات الكثير منها: المثل السائر، والوشْى المرقوم فى حل المنظوم، وغير ذلك. ينظر: معجم البلدان ٣/ ١٠٢، وفيات الأعيان ٣/ ٦٦.

على المعنى مردَّداً، وربما اشتبه على أكثر الناس بالإطناب مرة وبالتطويل أخرى، وهو ينقسم قسمين: أحدهما يوجد فى اللفظ والمعنى، والآخر يوجد فى المعنى دون اللفظ، فأما الذى يوجد فى اللفظ والمعنى فكقولك لمن تستدعيه: أسرع أسرع ... وأما الذى يوجد فى المعنى دون اللفظ كقولك: أطعنى ولا تعصنى، فإن الأمر بالطاعة نهى عن المعصية ...)[1].

من صدر كلامه (~) يَتَّضح مدى إحساسه بخَطَر القضية التى يتحدث عنها، وهو خَطَرٌ يَتَمثَّلُ – كما يُفهم من كلامه أيضاً – فى انطواء أساليب التَّكْرَار على وظائف أو أسرار تقتضى دقة الفهم والنظر لاستجلائها، مع عدم الخلط بين هذه الأساليب وغيرها مما قد يلتبس بها من طرق البيان الأخرى.

وقد عَرَّفَ (~) التَّكْرَار أولا تعريفاً مُجْملاً فى قوله: (هو دلالة اللفظ على المعنى مردداً) ثم اتَّضَح مفهوم التَّكْرَار عنده حينما قَسَّمه إلى قسمين: قسم يتكرر فيه الكلام لفظاً ومعنى، وقسم يتكرر فيه المعنى دون اللفظ، فهذا القسم الثانى يدل على أن التَّكْرَار عنده لا ينحصر فى نطاق الألفاظ ٱلمُتَّفقة، وإنما هو ذو أبعاد ومستويات متعددة، ثم إنه (~) قد طَبَّق مَفْهومه هذا بعد ذلك من خلال بضعة نماذج قرآنية، أَبْدَى فيها كثيراً من النَّظَرات والاجتهادات الدقيقة[2]. **أما أصحاب** كتب (المتشابه اللفظى) و(علوم القرآن) الذين عَرَّفْت بهم من قبل، فقد كانوا أصحاب الجهد الأكبر فى العناية بهذه الظاهرة التى يدور الحديث عنها، كما انطلقوا فى دراستها من مفهوم التَّكْرَار الشامل الذى ذَكَرْتُه – وهو ما ستوضحه

(١) ينظر: المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير ٢/ ١٥٧: ١٥٨ تحقيق: محمد محى الدين عبد الحميد طبع: مصطفى الحلبى ١٣٥٨هـ ١٩٣٩م.

(٢) ينظر هذه النماذج فى الفصل الذى عقده عن التكرار بكتابة: المثل السائر: ٢/ ١٤٦: ١٧١ طبع: المكتبة العصرية صيدا، بيروت تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد.

الشواهد التطبيقية فى هذه الكتب[١]- وإن لم يكونوا قد عَبَّروا أيضاً عن هذا المفهوم تعبيراً نظرياً أو اصطلاحياً مُنْضَبطاً إلى حد كبير، وهو ما يتضح فى قول الخطيب الاسكافى بأنه صَنَّف كتابه فى (الآيات المتكررة بالكلمات المتفقة والمختلفة)[٢].

**فما يُسَميه** ابن قتيبة بتكرار الكلام من جنس واحد **وما يُسَمِّيه** ابن الأثير بتكرير اللفظ والمعنى **هو ما يسميه** الخطيب بتكرار الكلمات المتفقة، وما يقابل ذلك من تكرار الصيغ المتنوعة، **أو ما يسميه** ابن الأثير بتكرار المعنى دون اللفظ هو **ما يسميه** الخطيب بتكرار الكلمات المختلفة.

**والخلاصة:** أنه بعد كل ما سبق يمكننى القول بأن مفهوم المثانى يكاد يكون هو مفهوم التَّكْرَار حسب مدلوله الشامل الذى ارتضيته، وقد اخترت مصطلح (المثانى)، ليكون عَلَماً على هذا البحث دون مصطلح (التَّكْرَار) ودون مصطلح (المتشابه) أيضاً الذى فَضَّلَه القدماء[٣] **للمبررات التالية:**

**أولاً:** إن لفظ (المثانى) يُعَدُّ اصطلاحاً قرآنياً مُتَمَيِّزاً أَطْلَقه القرآن على ظاهرة بارزة من ظواهره الأسلوبية،

فألْأَوْلَى أن نُسَمى هذه الظاهرة بما سَمَّاها به مصدرها، وإن استخدمنا معها غيرها – كالتَّكْرَار أو المتشابه فإنما هو فقط من قبيل الإيضاح والتفصيل.

---

(١) سوف أذكر نماذج واضحة لهذه الشواهد بالمطلب الثانى من المبحث الثانى.

(٢) سبق كلامه هذا أثناء الحديث عنه فى المطلب السابق.

(٣) وإن كان أحدهم – وهو ابن جماعة – قد سمى كتابه: (كشف المعانى عن متشابه المثانى) كما سبق فى المطلب السابق، لكن لغياب هذا الكتاب لم أتمكن من تحديد مقصد صاحبه فإما أنه يريد بلفظ المثانى فى هذا العنوان (القرآن) نفسه على اعتبار أن (المثانى) أحد الأسماء التى أطلقت بالفعل على القرآن كما جاء فى: الإتقان ١/ ٦٨، وإما أنه يريد به نفس المعنى الإصطلاحى الذى أقصده.

**ثانياً:** إن مدلول لفظ (المثانى) رغم مقاربته الشديدة لغوياً لمدلول التَّكْرَار إلا أنه هو الأقدر على التعبيرالحقيقى عن واقع الظاهرة التى يدل عليها فى القرآن، لأنه يتكفَّل بالإخراج من هذا النطاق الضيق – الذى يَنْحصر فيه التَّكْرَار لدى البعض – والإنطلاق إلى ظاهرة بيانية قرآنية محددة يراد فهمها ودراستها بصرف النظر عن أى جدل يكون حول معنى التَّكْرَار. **ثالثاً:** إن لفظ المثانى ببنائه الصرفى – على وزن مفاعل – هو ٱلأَدَلّ على هذه الظاهرة التى يعبر عنها بلفظ التَّكْرَار، لأنه جمع تكسير مفرده (مثناه) وبذلك فإنه لا يعبر فقط عن هذه الظاهرة – كما هو الحال فى لفظ التَّكْرَار –بل يعبر أيضاً عن مفرداتها أو أفرادها مما يُعَمِّقِ الإحساس بها ويحيلها إلى واقع مشهود تتوالى فيه هذه الأفراد – أو المثانى – نابضة بالحركة والحياة. **رابعاً:** إن مدلول المثانى وثيق الصلة بمدلول التَّكْرَار حيث إن التشابه بين شيئين أو أكثر – كما سبق – ما هو إلا صفات تتكرر بدرجة معينة فى الأشياء المتشابهة، وبالتالى فإن مصطلح المتشابه اللفظى الذى اختاره السابقون وثيق الصلة بمصطلح المثانى الذى اخترته، أو يحمل لديهم نفس مدلوله، لكن عدلت عنه أيضاً لأنه – بنفس لفظه – لا يحمل معنى التثنية والترديد، وهو المعنى الجوهرى الذى تدور حوله هذه الظاهرة التى أُعْنَى بدراستها. **خامساً:** إن اختيارى لمصطلح (المثانى) دون المتشابه قد جَنَّبَنى أيضاً أى نوع من الخلط مع المتشابه الآخر الذى يقابل المحكم كما سبق أن أشرت إليه فى بداية المطلب السابق، وَجَنَّبى كذلك الخلط بين هاتين الصفتين الواردتين فى قوله تعالى: ﴿**كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ**﴾ وقد سبق فى المطلب الأول من هذا المبحث أن تحدثت عن الصلة الوثيقة بينهما مع تميز كل منهما فى الوقت نفسه بمدلوله الخاص.

**وفى النهاية** إذا كنت قد استغرقت مطالب هذا المبحث فى تحديد المفهوم النظرى للمثانى، فإن مطالب المبحث التالى على استحياء شديد يمكن أن تكون كفيلة بالكشف التطبيقى عن هذا المفهوم.

# المبحث الثانى
# المثانى وإعجاز القرآن

## المطلب الأول: المثاني والتميز القرآني

يقوم هذا المطلب علي غرض محدد هو تجلية فكرة (التميز القرآني) وذلك لغرض محدد أيضا، هو تجلية دور المثاني القرآنية في هذا التميز.

وأبدأ ذلك بنوع من العودة إلي الجذور الأولي.

فأوضح أن إحساس أي قارئ للقرآن بأنه أمام لون فريد من البيان لا يعهده في أي كلام آخر هو نفس الإحساس الذي امتلأ به العربي الأول حين قرع سمعه أول آيات من هذا الكتاب.

لقد تصدي المشركون له في أول الدعوة، فطعنوا فيه بأنه أساطير وبأنه سحر وبأنه شعر وبأنه كهانة وبأنه افتراء واختلاق، كما تحكي ذلك كثير من آيات القرآن[1]، وعدم ثباتهم علي طعن بعينه من هذه الطعون، يعد في حد ذاته . من أدل الشواهد علي الصدمة التي دهمتهم فتركتهم متحيرين متخبطين صدمة هذا الكيان البياني الجديد الذي يجتاح أفئدتهم أمامه اجتياحا كلما اقترب أحدهم منه أو حاول مقاومته أو شك أن ينجرف إلي تياره ويدور في مداره.

وفي ذلك روايات قديمة لا يزال تأملها يأتي بجديد:

فهذا عتبة بن ربيعة يبعثه وجوه قومه إلي (النبي (ﷺ) ليكلمه، وكان حسن الحديث عجيب الشأن بليغ الكلام، وأرادو أن يأتيهم بما عنده [2]، فقرأ النبي (ﷺ)

---

(١) انظر علي سبيل المثال: سورة يونس/٣٨ وهود/٣٥ والأنبياء/٥ والنحل/٢٤ والفرقان/٥ والذاريات/٥٢ والطور/٢٩ . ٣٠ والحاقة من ٤٠ . ٤٢.

(٢) أي: يقص عليهم بعض أحواله أو يحاورهم ويأتيهم بالنتيجة.

سورة حم السجدة من أولها حتي انتهي إلي قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾فوثب مخافة العذاب، فاستحكوه ما سمع، فذكر أنه لم يسمع منه كلمة ولا اهتدي لجوابه)[١].

لقد وثب المشرك المعاند مخافة العذاب كما يثب المؤمن التقي العارف بربه، وذلك لأن التلاوة قد أحاطت بحسه وحملته في تيارها حتي وجد نفسه وجها لوجه أمام الصاعقة في آخر آية سمعها، فكانت الوثبة التي وثبها ثم حين تلقاه قومه ليسألوه عما سمع قال: إنه ما سمع شيئا ولا قال شيئا أي:ما سمع كلاما معهودا يرد علي مثله، فكيف يخاطب محمدا أو يجادله؟! ولذلك قال لهم عثمان بن مظعون: لتعلموا أنه من عند الله إذ لم يهتد لجوابه [٢].

**وفي مناسبة أخري:** عقدوا مؤتمرا بزعامة الوليد بن المغيرة ليتدارسوا أمر هذا القرآن ويتفقوا علي رأي واحد يعلنونه فيه أمام كل العرب ليصدوهم عنه.

قال لهم الوليد. وقد حضر الموسم –: ستقدم عليكم وفود العرب من كل جانب، وقد سمعوا بأمر صاحبكم، فأجمعوا فيه رأيا ولا تختلفوا، فيكذب بعضكم بعضا – قالوا: فأنت فقل. فقال: بل قولوا وأنا أسمع. قالوا: نقول: كاهن. قال: ما هو بزمرة [٣] الكهان ولا سجعهم قالوا: نقول: مجنون، قال: ما هو بمجنون. لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه [٤]

**ولا وسوسته ولا تخالجه[٥] قالوا نقول:** شاعر. قال: ما هو شاعر، لقد عرفنا الشعر: رجزه وهزجه، وقريضه، ومقبوضه ومبسوطه. قالوا: نقول ساحر. قال: ما

---

(١) ينظر: إعجاز القرآن للباقلانى على هامش الإتقان: ١/٤٧ . ٤٨.

(٢) المصدر السابق: ١ /٤٨.

(٣) يقصد: نغمة الكهان أو طريقتهم.

(٤) الخنق (بكسر النون) مصدر خنق يخنق.

(٥) النخالج: ارتعاش العين، فصده أن الرسول لا يعتريه ما يعتري المجنون من الاضطرابات العصبية التي من مظاهرها الاختناق والارتعاش.

هو بساحر، لقد رأينا السحرة وسحرهم، فما هو بعقدهم ولا نفثهم ٠ قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: ما نقول من شئ من هذا إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول أن تقولوا: ساحر، يفرق بين المرء وأخيه وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته فتفرقوا عنه بذلك فجعلوا يجلسون للناس لا يمر بهم أحد إلا حذروه رسول الله (ﷺ)، فأنزل الله في الوليد بن المغيرة: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [1](المدثر/الآيات من ١١ . ٢٦).

لقد استعرضوا كل الآراء والاقتراحات، لكن الوليد فندها واحدا واحدا، بما يفيد أن ما يسمعونه من محمد نسيج آخر، لا يشبه أبدا ما ألفوه من كلام الكهان وسجعهم ولا من اضطراب المجانين وهذيانهم ولا من ألوان الشعر المعروفة بينهم ولا من طلاسم السحرة وتمتماتهم ثم في النهاية لم يجد بدا من اختيار شئ، فاختار الاقتراح الأخير وصاغه لهم في هذه الصياغة السابقة، ولم يكن اختياره لهذا الاقتراح أمرا جزافيا، بل مقصودا ومدروسا تماما (إنه فكر وقدر) كما جاء في سورة المدثر، فلو قال بأن القرآن كهانة أو جنون أو شعر لا نكشف أمره، لأن المقارنة بين القرآن وأي نوع من هذه الأنواع الثلاثة أمرا غير ممكن يستحيل وضعه علي مائدة البحث الذي سيظهر . دون شك . مفارقة القرآن التامة لكل من الأنواع السابقة، فاختار قولا لا يمكن الإمساك به ولا يعرضه لهذه المقارنة ومن الذي يعرف حقيقة السحر؟ وأين طرفاالمقارنة إذا قيل بأن القرآن سحر،

ثم إن هذا القول له دلالته الهامة أيضا من جهة أخري: إنه يكشف عن أثر القرآن الذي لا يقاوم في نفوسهم، كما لا يستطيع المسحور مقاومة السحر ولا حتي إدراك كيفية تسلله إليه.

(١) انظر: مختصر سيرة الرسول (ﷺ) للإمام محمد بن عبد الوهاب، بتحقيق محمد حامد الفقى، ط مكتبة السنة المحمدية ١٣٧٥هـ – ١٩٥٦م ص٧٦ – ٧٧.

وهذا أنيس أخو أبي ذر الغفاري (ﷺ) يقول له: لقيت رجلا بمكة علي دينك يزعم أن الله أرسله. فقال له أبو ذر: فما يقول الناس؟ قال: يقولون شاعر، كاهن، ساحر، وكان أنيس أحد الشعراء فقال: لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله علي أقراء الشعر فلم يلتئم علي لسان أحد بعدي أنه شعر، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون(١).

لقد قام أنيس بهذه المقارنة التي ذكرتها، فتبين له أن القرآن ليس من هذا الكلام الذي يعرفونه في شئ ولنلحظ أن تهمة السحر لم تدخل في هذا المقارنة كما أشرت من قبل وكأن أنيسا أحس بأنها محض تفلت أو إفلاس فتجاوزها ولم يعبأ بها.

إن هذا التفرد أو التميز القرآني الذي شغل هؤلاء العرب الأوائل، قد شغل أيضا علماءنا الأوائل في كتاباتهم عن (إعجاز القرآن) باعتبار أنه فرع عن هذا الإعجاز أو لازمة من لوازمه.

**فهذا أبو بكر الباقلاني** – علي سبيل المثال – يتحدث عن أسلوب القرآن فيقول: ٠٠(وذلك أن نظم القرآن . علي تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه . خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد، وذلك أن الطرق التي يتقيد بها الكلام البديع المنظوم تنقسم إلي أعاريض الشعر علي اختلاف أنواعه، ثم إلي أنواع الكلام الموزون غير المقفي، ثم إلي أصناف الكلام المعدل المسجع، ثم إلي معدل موزون غير مسجع، ثم إلي ما يرسل إرسالا فتطلب فيه الإصابة والإفادة وإفهام المعاني المعترضة علي وجه بديع وترتيب لطيف وإن لم

(١) انظر هذه الرواية في صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة.

يكن معتدلا في وزنه، وذلك شبيه بجملة الكلام الذى لا يتعمل ولا يتصنع له وقد علمناأن القرآن خارج عن هذه الوجوه ومباين لهذه الطرق) [1].

وإذا كان الإمام الباقلاني وغيره من البلاغيين والأدباء قد أحسوا بهذا التميز إحساسا عميقا ونشطوا قدر ما وسعهم في بيان ملامحه، فإن النحاة لم يكونوا علي نفس المستوي، حيث سقط أكثرهم في هوة اتخاذ الشعر أساسا لاستقاء قواعد اللغة ثم قياس قواعد القرآن عليها مما دفع بعض العلماء من القدماء والمحدثين لمقاومة هذه السقطة وإثبات أن القرآن يقاس عليه ولا يقاس هو علي غيره، وأن له تفرده أيضا علي المستوي النحوي وليس فقط علي المستوي البلاغي [2]، وما النظام النحوي . في حقيقة أمره . إلا جزء أصيل من النظام اللغوي العام بكل إمكاناته ومقوماته التعبيرية والجمالية.

إن القرآن الكريم – باختصار شديد– يعد من الناحية البيانية نوعا أدبيا جديدا لا عهد للعرب به قبل نزوله في أي فن من فنونهم القولية، نوع جديد لا يقال له (شعر) أو (نثر) وإنما يقال له (قرآن) فقط ٠

ومن الحقائق المستقرة لدي الباحثين في قضية (الأنواع الأدبية) أن هذه الأنواع في نشأتها وتطورها متواصلة دائما، لا ينشأ أي منها دون مقدمات ولا يفنى أي

---

(١) إعجاز القرآن، علي هامش الإتقان:٦٣/١ – ٦٤.

(٢) من ذلك مثلا قول الفراء: " الكتاب أعرب وأقوى في الحجة من الشعر" وقول الفخر الرازي: "إذا جوزنا إثبات اللغة بشعر مجهول فجواز إثباتها بالقرآن العظيم أولي. وكثيرا ما نري النحويين متحيرين في تقرير الألفاظ الواردة في القرآن ٠ فإذا استشهدوا في تقريرها ببيت مجهول فرحوا به، وأنا شديد العجب منهم، فإنهم إذا جعلوا ورود القرآن دليلا علي صحتها كان أولي ". انظر القولين السابقين ونحوهما ص٣٩ وما بعدها من كتاب "نظرية النحو القرآني" للدكتور أحمد مكي الأنصاري، ط دار القبلة . للثقافة الإسلامية ١٤٠٥هـ، وهو من الجهود الحديثة المشكورة في هذه القضية.

منها فناء نهائيا، بل يتولد بعضها من بعض، ويحمل كل منها بعض خصائص النوع السابق عليه، مهما كانت الفروق بينها من حيث الخصائص أو الصيغ النهائية، ومهما وقف وراء بعضها من مظاهر العبقرية(١).

لكن العجيب أن هذه الحقيقية المستقرة لا تنطبق علي القرآن، فلا يستطيع أحد الزعم بأن هناك نوعا أدبيا ما قد مهد له من أنواع الأدب العربي، أو أن أنواع هذا الأدب قد نشأت وتطورت حتي جاء القرآن في النهاية حلقة طبيعية في سلسلة تطورها، نعم هو منزل بلسان عربي مبين، ويجري أساسا في أساليبه وطرائقه البيانية وفق هذا اللسان، لكنه قد تطور بهذه الأساليب والطرائق تطورا فذا، وقدم فيها نمطا جديدا من البيان يستحيل البحث عن جذور واضحة له في أي نوع أدبي سابق عليه، وإن دل ذلك علي شئ فإنما يدل علي إعجاز هذا الكتاب، وأنه لم يصدر من بشر، وإلاَّ لانطبقت عليه قوانين الآداب البشرية في نشأتها وتطورها علي النحو الذي أشرت إليه.

هذا النوع الأدبي الجديد، هو الذي حاول الباحثون من قديم دراسة خصائصه الفنية والبيانية المتفردة، وما نشأت علوم البلاغة العربية أصلا .كما هو معروف . ولا علوم اللغة إلا لخدمة هذه الدراسة التي قدم ولا يزال يقدم فيها كثير من الجهود.

---

(١) يقول سى فينسنت عن تطور الأنواع الأدبية: " فالتطور عبارة عن مجموعة من الصيغ يأخذها النوع الأدبي كالملحمة والدراما، وذلك تحت تأثير العبقرية والحضارات المختلفة. وتحاول نظرية التطور هذه أن تربط بين هذه الصيغ التي أخذت أشكالا أخري، وأن تشرح كيف يتولد بعضها من بعض، وأن تكشف عن العنصر المستمر تحت هذا التدرج وعن الوحدة الباقية من هذا التشقيق ". انظر في هذا الكلام وما تبعه من أسئلة تطبيقية: كتاب نظرية الأنواع الأدبية لسي فينسنت: ص ٣٥ وما بعدها، ترجمة الدكتور حسن عون، طبع منشأة المعارف ١٩٧٨ م.

**والذي يعنينى من هذا المطلب هو:** التنبيه إلي أن ظاهرة المثاني القرآنية تعد خاصية من أبرز الخصائص السابقة، أو تعد عنصرا هاما من عناصر هذا التميز القرآني الذي تحدثت عنه. إن حصاد هذا المطلب . واللاحق إن شاء الله . ليدل علي أن القرآن كتاب متفرد بشأن هذه الخاصية *من عدة وجوه:*

**الوجه الأول:** يتعلق باستخدامه المكثف لهذه الخاصية، حتي ليمكن القول بأنه لا يشبهه في ذلك كتاب آخر، ومن ثم كان وصف الله بأنه: (مثان) وبأنه(متشابه) وكانت تسميته أيضا بالمثانى ضمن ما أحصى له من أسماء،وقد مرتفصيل كل ذلك فى المبحث الأول.

ولا يفوتني كذلك في هذا المقام تذكر وصية الرسول (ﷺ) في حفظ القرآن التي يقول فيها: (تعاهدوا هذا القرآن، فو الذي نفس محمد بيده لهو أشد تفلتا من الإبل في عُقُلها) (١)

لقد فكرت في سر هذا التفلت، وفي التوفيق بينه أيضا وبين قول تعالي في سورة القمر: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ ﴾ ، فلماعايشت موضوع المثاني القرآنية أوشكت أن أجزم بأنها السبب الأساسي في تفلت القرآن، وبأنها السبب الأساسي في تيسيره أيضا، وذلك لما تشيعه فيه من التشابه بين صيغه ومدلولاته مع وجود فروق دقيقة في الوقت نفسه بين كثير من هذا الصيغ والمدلولات، فالتشابه الذي فيها هو الذي ييسر تلاوتها وتجميعها في الذهن، والفروق الدقيقة التي بينها هي التي تؤدي إلي سرعة تفلتها.

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه: فى كتاب صلاة المسافرين وقصرها . باب: الأمر بتعهد القرآن وكراهة قول نسيت آية كذا، وجواز قول أنسيتها:١/٥٤٥ برقم:٧٩١. رواه الشيخان، انظر: رياض الصالحين للنووى بتحقيق عبد الله أبو زينة، ط دار الباز ص ٣٢١.

ومن هنا اختص القرآن أيضا بأنه: أيسر الكتب استحضارا لمن تعهده بالتلاوة، وبأنه أسرعها ذهابا كذلك ممن غفل عنه، وهذا أمر مجرب بين حفاظه علي وجه الخصوص.

**الوجه الثاني:** يتعلق بقيمة هذه الخاصية في القرآن، وذلك أنها لا تقتصر فيه علي أغراض التكرار المعروفة عند البلاغيين، وإنما تمثل فيه قيمة أعظم من جانبين:

**أحدهما:** أنها جزء أساسي من نسيجه، باعتبار أنها مقوم طبيعي من مقومات (نظام السورة) كما تبين ذلك في أوائل المبحث السابق ٠

**الآخر:** أنها مصدر حقيقي من مصادر عطائه، وأداة أساسية من أدواته التي يتوسل بها إلي تحقيق أغراضه كما سيتضح من المطالب القادمة، التي سأتناول فيها دور المثاني في تحقيق أهداف القرآن في التغيير، وفي تصديق مضمونه.

**الوجه الثالث:** يتعلق باستخدام القرآن المعجز لهذه الخاصية، فما أسهل أن يكرر المتكلم في كلامه، لكن ما أصعب أن يوظف هذا التكرار، فضلا عن أن يرتفع بهذا التوظيف إلي حد الإعجاز.

ولعله من المعلوم أن كثرة التكرار في الكلام كثيرا ما تكون نقيصة تقدح في بلاغته وتصد عن تقبله، فإذا بنا نجد أن القرآن قد حقق العكس، حين جعل من هذه الخاصية البارزة فيه وجها من وجوه إعجازه البياني.

وهذا ما عبر عنه أيضا باحثون آخرون بعبارات متنوعة أثناء تأملهم لهذا الوجه، كما في قول أحدهم: (٠٠ وإذا تفجرت القوة من مظنة الضعف كان ذلك أدخل في باب الإعجاز، وأعلي كعبا في باب البلاغة والتحدي، ولا نعلم مظنة للضعف أظهر من التكرار)[1].

---

(١) ص١١ من مقدمة تحقيق عبد القادر عطا لكتاب الكرماني (البرهان). وانظر أيضا: إعجاز القرآن للرافعي: ص٢٢٠ – ٢٢١ والإعجاز في دراسات السابقين لعبد الكريم الخطيب: ص ٣٩٤ – ٣٩٥، ط٢ دار المعرفة – بيروت ١٣٩٥هـ . ١٩٧٥م.

*والحق أن* نظام السورة القرآنية الذي سبق أن تحدثت عنه في أوائل المبحث الثانى يعد هو المفتاح الأساسي لفهم إعجاز التكرار في المثاني القرآنية ، كما كان هو المفتاح أيضا لفهم آفاقها، وذلك لأن أهداف القرآن وتوجيهاته وأخباره ومدلولاته كثيرة التردد في سورة وآياته، لكنها مع ذلك . تبعا لهذا النظام . تأتي في كل موضع علي صورة بعينها تكاد دائما تخالف غيره حتي لو اتفقت بعض الصيغ أحيانا تمام الاتفاق، فإن كل صيغة يكون لها وقعها الخاص الذي تستمده من السياق العام الذي وضعت فيه تماما كما تتكرر اللمسة في أكثر من لوحة هي هي هي تماما، لكنها بالقياس إلي اللوحة كلها وإلي ما حولها وما يرتبط بها تؤدي في كل مرة دورا خاصا أو تحدث تأثيرا متميزا.

***من هنا***، فإن هذا التردد – برغم انتشاره – لا يشعر المرء معه بالملل أو الرتابة أو الآلية، بل يشعر معه بأعلي مستويات التنوع والتجدد والفاعلية، وذلك لأن طريقة التردد . حسب النظام المذكور . تجعل لكل سورة عطاءها ومذاقها المتميز، وتجعل لكل عنصر فيها حركته وفاعليته الخاصة الناشئة من طبيعة الأهداف التي تتوخاها السورة وطبيعة الوسائل التي اتخذتها لتحقيق هذه الأهداف.

**ولعل** الشواهد التطبيقية التي سأتعرض في المطلبين القادمين إضافة إلي كثير من الشواهد التي مرت تكون هي البرهان العملي الذي يصدق الحديث في هذا الوجه.

## المطلب الثاني: المثاني وإقرار النمط الجديد

ليس من شك أن هناك عوامل كثيرة تؤثر علي مدي تفاعل المتلقي مع أي خطاب أو نص يوجه إليه، منها ما يتصل بالجانب العقدي والنفسي، ومنها ما يتصل بإمكانيات المتلقي نفسه العقلية والعلمية، ومنها . وهو ما أركز عليه في هذا المطلب . ما يتصل بمدي تآلفه أو تجاوبه مع التقاليد الفنية للنص الموجه إليه.

وأزيد ذلك إيضاحا بالقول: إن العربي القديم في تلقيه للشعر مثلا لم يكن يتجاوب معه لمجرد ارتباطه ببيئته أو اتجاهاته، أو لمجرد قدرته علي فهمه، بل لأنه قد اعتاد تقاليده الفنية أيضا من حيث البناء الفني للقصيدة بكل مقوماته وعناصره المتصلة بطريقة استهلال القصيدة ونوع موسيقاها وطرائق تعبيرها وأساليبها ونحو ذلك، وكذلك كان شأنه مع التقاليد الفنية لكل الفنون القولية الأخرى المعروفة في بيئته.

فالإنسان مرتبط دائما بما يألف، سريع التجاوب معه، متنافر أيضا مع ما لا يألفه، متوجس منه، بطئ في تقبله، وذلك سر مظاهر الرفض التي يواجهها دائما . في أول الأمر . كل جديد مخالف للمألوف في الحياة، بصرف النظر عن كونه جديدا بناءا حقا أو هدما وتدميرا تحت شعار "التجديد".

علي أي حال، فإن القرآن قد كان نمطا من القول لم يعهده العرب من قبل، ولم يستطيعوا حسب تقاليد آدابهم التي يعرفونها أن يوجهوه إلي أي نوع منها، فكان إفلاسهم بنسبته إلي السحر كما مر في المطلب السابق، لكنهم برغم ذلك قد استسلموا لبيانه، وكانوا يحومون حوله ويتقونه، ثم يقعون عليه كما يقع الفراش في النار، وهذه هي المعجزة معجزة البيان القرآني الذي استطاع بمقوماته الخاصة أن يسيطر عليهم، رغم أنه نمط بياني جديد لم يألفوه من قبل.

وإذا كانت هذه المقومات هي التي تشكل مختلف القضايا التي تدور حولها مباحث الإعجاز البياني للقرآن، فأعتقد أن المثاني القرآنية من أهمها.

**والذي أقصد إليه في هذا المطلب،** أن هذه المثاني كان لها دور كبير في تأليف قلوب هؤلاء المتلقين الأوائل علي هذا النمط البياني الجديد، وكان لها دورها . في الوقت نفسه . في إقرار أو تقرير طرائقه وأساليبه وغرسها في النفوس، فإنها بترديدها الدائم لتوجيهات القرآن ومدلولاته وصيغه وتعبيراته، تنشر فيه ظلال

التشابه الذي وصفه الله به في قوله: (**اللهُ نَزَّلَ أحسَنَ الحَدِيثِ كِتا با مُتشَابِهاً مَثَانِيَ**)، فتعتاده النفوس وَتُرَوَّض علي نمطه الجديد كما يروض الجسم علي أداء أوضاع معينة بكثرة المران عليها والتعايش معها، وهذا الدور الذي تؤديه المثاني يتضح أكثر بمعايشة المزيد من نماذجها التى تمد البصر إلي أبعد آفاقها في النص القرآني.

**فَلْأَعِش مثلا** مع هذه الأمثلة في تنزيه الله تعالي عن الشرك والشركاء: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ **النحل: ١** ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ **النحل: ٣** ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ **الأعراف: ١٩٠** ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ **المؤمنون: ٩٢.**

**وهذه الأمثلة أيضا في تبكيت الله تعالي للمشركين وما يعتريهم من الخزي يوم القيامة:** ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْۚ﴾ **النحل: ٢٧** ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ **القصص: ٦٢** ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ **فصلت: ٤٧.**

**وهذه الأمثلة في إهلاك من سبق من القرون الضالة الجاحدة:** ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ **الأنعام: ٦** ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ **القصص: ٤٣** ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ **ص: ٣** ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾

ق: ٣٦ ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ الكهف: ٥٩.

وهذه الأمثلة كذلك في تزيين الشر أو الدنيا من قبل النفس أو من قبل الشيطان: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ البقرة: ٢١٢ ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ يونس: ١٢ ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ محمد: ١٤ ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ النحل: ٦٣ ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ الأنفال: ٤٨.

**ولأعايش أيضا:** الصيغ المتعلقة بأسماء الله الحسني، حيث يَكْثُر . مثلا . تَرَدُّد (الغفور) مقترنا بـ (الرحيم) و (العزيز) مقترنا بـ (الحكيم) و (الواسع) مقترنا بـ (العليم)، **وكذلك:** الصيغ المعروفة في اقتران الإيمان بالعمل الصالح، وفي اقتران الصلاة بالزكاة، وما إلي ذلك من الشواهد التي يضيق المجال عن حصرها.

**لأعايش كل ذلك،** ثم أسأل: بأي شئ يشعر المرء بعد أن يفرغ من الحياة مع هذه المثاني؟ إنه ليشعر بأنها قد طبعت نفسه بطوابع أسلوبية خاصة متميزة، بل غرستها في أعماقها غرسا وروضتها عليها ترويضا، كما يشعر بأنه أمام كتاب له قاموسه التعبيري المتميز.

ولكل نص أدبي بوجه عام قاموسه المتميز لكن اللافت في قاموس القرآن هو تميزه الواضح علي مستوي التراكيب أو التعبيرات، وليس فقط علي مستوي الألفاظ المفردات، إنه يكاد يردد التركيب بنفس مستوي تردد اللفظ المفرد، حتي إن قارئه ليعتاد تماما . حيثما قرأ . أن يلتقي بتراكيبه كما يعتاد أن يلتقي بمفرداته.

ولو تقدمت خطوة أبعد، لرأيت هذه المثانى تكاد تُحَوِّل مدلولات القرآن كلها فى حِسِّ قارئه إلي ما يُشْبه القنوات المتواصلة التي يَصُب بعضها في بعض، مهما تباعدت مجاريها أو تفرقت، فما يكاد المرء يتلو بعض آيات هذا الكتاب ويتدبرها حتي يشعر بأنها تنساب به في الكتاب كله.

والشواهدعلي ذلك يضيق المجال عن حصرها،لكن سأكتفى هنا بشاهد واحد من سورة الأعراف: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾الأعـــراف: ١٨٠ – ١٨٤، وَبتَأَمُّل هذه الآيات، يظهر أنه لا تكاد آية منها تخلو من قناة أو أكثر تصب في غيرها أو يصب فيها غيرها من قنوات القرآن، وهذه بعض أمثلة علي ذلك، مرتبة بترتيب ورودها في الآيات السابقة:

**(أ) أسماء الله الحسني** (في الآية / ١٨٠): إن هذه الأسماء ـ تحديدا ومفهوما ـ من القضايا المتصلة بأصول العقيدة، وبركنها الأول علي وجه التحديد، ومما يتصل بها من آيات القرآن الأخرى هذه النصوص: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾الإسراء: ١١٠، ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ طه: ٧ – ٨، ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ الحشر: ٢٤.

**(ب) الجزاء الإلهي العادل** (في الآية / ١٨٠): هذا الجزاء ـ سواء كان وعدا أو وعيدا ـ من أصول العقيدة التي يعني القرآن أيضا بتثبيتها، وقد تردد ذلك في كثير من آياته علي هذا النحو: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ

تَعْمَلُونَ ﴾ يـــس: ٥٤، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ التحريم: ٧، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ﴾ الأنعام: ١٢٠.

**(ت) الأمة الهادية المهتدية** (في الآية / ١٨١): بم أن كل رسول يرسل إلي أمة، وبم أن الناس يعيشون دائما أمما أو جماعات، وبم أن تمام الدين لا يكون إلا من خلال جماعة، لكل ذلك كان اهتمام القرآن بذكر أخبار الأمم ومواقفها من تقبل الرسالات، وهذا الشاهد يقرر أن هناك دائما طائفة قائمة بالحق [1] مهما كان ضلال غيرها من الناس، وفي هذا المعني وردت نصوص قرآنية أخري علي هذا النحو: ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ الأعراف: ١٥٩ ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۗ ﴾ آل عمران: ١١٠ ﴿ لَيْسُواْ سَوَآءًۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ آل عمران: ١١٣ ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ المائدة: ٦٦ .

**(ث) الاستدراج والإملاء** (في الآيتين / ١٨٢ / ١٨٣): الاستدراج والإملاء من السنن الإلهية الواضحة مع كل أمة عاتية تصد عن سبيل الله، وتزيدها النعم طغيانا، ولا تجدي فيها، حينئذ يستدرجها الله تعالي إلي سوء العاقبة بأن يملي لها، أي يمهلها ويمدها بمزيد من النعم فتزداد في غيها وضلالها، فينزل بها بغتة أسوأ عقابه، وفي ذلك وردت أيضا نصوص قرآنية أخري علي هذا النحو: ﴿ فَذَرْنِي وَمَن

(١) بصرف النظر عن مدي قوة هذه الطاقة أو تمكنها في الأرض، وبصرف النظر أيضا عن كونها(أمة) بالمفهوم الأعم أو كونها (جماعة) وبكلا المعنيين يستعمل لفظ (الأمة) في أصل اللغة ٠ انظر: القاموس المحيط، مادة (أمم) ٠

﴿ يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ القلم: ٤٤ – ٤٥، ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ آل عمران: ١٧٨، ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ الرعد: ٣٢، ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ الأنعام: ٤٤.

**(ج) اتهام الرسول بالجنون** (في الآية / ١٨٤): هذا اتهام معلوم في تاريخ الأديان كلها، يوجهه المكذبون ضمن ما يوجهونه من اتهامات إلي أنبيائهم، حين يفلسون في مواجههتم بالحجج المنطقية الواضحة، ويحكي القرآن ذلك أيضا في كثير من آياته علي هذا النحو: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾ المؤمنون: ٧٠، ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ الذاريات: ٥٢، ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ سبأ: ٤٦.

**(ح) الرسول والإنذار** (في الآية / ١٨٤): مهمة الرسول الحقيقية هي الإنذار وليست التبشير، لأن المشكلة ليست في أهل الطاعة، إنما هي في أهل المعصية، فالرسول يبلغ رسالة ربه وينذر الذي لا يتقبلونها بعقاب الله الشديد، ويؤيد ذلك أيضا نصوص قرآنية آخري علي هذا النحو: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ هود: ١٢، ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ هود: ٢٥، ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ الحج: ٤٩.

أما التبشير فيأتى تابعا للإنذار، لأن ذكر العقاب يستدعي ذكر الثواب، ومن ثم فإن القرآن قد يقصر وصف الرسول علي أنه ﴿نَذِيرٌ﴾ لكن لا يقصر وصفه أبدا

علي أنه (بشير) فلا يأتي هذا الوصف الثاني في القرآن إلا مقترنا بالوصف الأول [١].

إن هذا المثال الذى قدمته من خلال الآيات التي اخترتها من سورة (الأعراف) – بعد أن واصلتها أو واصلتنى هي بسائر مقاصد القرآن – لتذ كرنى بهذه الشريحة التي تؤخذ من الكائن الحي، ثم توضع تحت المجهر لتحليل مكوناتها، فإذا بها تحمل كل خصائص هذا الكائن وعناصره، وإن كانت في الوقت نفسه – حسب موقعها الأصلي – لها كيانها المتميز ولها وظائفها الخاصة التي تؤديها حسب طبيعة العضو الذي ترتبط به.

**والذي أخلص إليه** في نهاية هذا المطلب، أن من أهم وظائف المثاني القرآنية: أنها تحيط متلقي القرآن إحاطة تامة . حيثما نظر فيه . بسماته وطرائقه البيانية الجديدة، إلي الحد الذي يشعر معه بأنه يعايش هذا الكتاب . أو بأن هذا الكتاب يعايشه . منذ أمد بعيد.

## المطلب الثالث: المثاني وتصديق القرآن

**لعله** من المعلوم أن دعوة الحق لا يكفي لاقتناع الناس بها أن يكون مضمونها حقا في ذاته، بل لابد لهذا الحق من أدلة أخري تقترن به لتعضده وتشهد بصدقة،ومن ثم ففى هذا المطلب سأحاول – بتوفيق الله – أن أقدم مزيدا من إسهامات المثاني القرآنية في ميدان إعجاز القرآن من هذه الزاوية، زاوية الأدلة التي يمكن أن تقدمها هذه المثاني لتقعيد المضمون القرآني نفسه أو تصديق ما يشتمل عليه من حقائق وتوجيهات، ولا يخفي أن هذه الأدلة سوف تنطلق من الخاصية الأساسية للمثاني، تلك الخاصية التي ظهرت كثير من وظائفها في القرآن من خلال المطلبين السابقين، وأود في هذا المطلب أن تظهر وظيفة جديدة

(١) ينظر: (المعجم الفهرس) في كلمة (بشير) ص ١٢٠، وكلمة (نذير) ص ٦٩٢ – ٦٩٣

لها، وذلك حين تقوم بدور المُعَضِّد أو المؤكد لصدق الخطاب القرآن، وحين تكون أيضا هي ذاتها الدليل الناصع علي صدق هذا الخطاب.

***وسوف أُفَصِّل ذلك*** في الصفحات التالية من خلال عدة وجوه تبدو في الظاهر متعددة متنوعة، وإن كانت في حقيقة أمرها متداخلة متشابكة، بمعني أن كثيرا من الشواهد القرآنية التي سأعرض لها تحت هذه الوجوه يصح أن تدخل في أكثر من وجه وإن غلب انتماؤها إلي وجه بعينه.

***الوجه الأول:*** وهو عن التكرار حين يكون مظهرا من مظاهر قوة الحق وصلابته، وذلك حين يطرح المتكلم ما لديه في ثقة تامة لا تهتز وفي قوة سافرة لا تلين يقرره ويردده دون خشية من أحد ودون اكتراث برفض أو تأييد، حتي لو كان الرفض من الناس جميعا، ذلك أن همه ليس رضا الناس، وإنما همه تقرير الحقيقة فقط مهما كان موقف الناس منها، ولو كان كاذبا لتزعزع . بالطبع . فيما يطرحه أو ساوم عليه أو هادن فيه.

ويبدو هذا الوجه ساطعا في كثير من الشواهد القرآنية التي أكتفي منها *بالشاهدين التاليين:*

***الشاهد الأول:*** هذا الشاهد يتمثل فيما يعلنه القرآن كثيرا بأساليب متنوعة من أن حال أغلب الناس هو الفسق والكفر والجهل والضلال.

لقد أعلن ذلك في حوالي خمسة وثمانين موضعا أو يزيد علي هذا النحو: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ المائدة: ٤٩،﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾ الأنعام: ١١٦،﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ البقرة: ٢٤٣،﴿ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ هود: ١٧،﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ الإسراء: ٨٩،﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سبأ: ٣٦﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا

وَكُفْرٌ﴾ المائدة: ٦٨، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ يونس: ٩٢، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾الحديد: ٢٦ . (١)

إنه لأمر صعب حقا أن يواجه الداعية جميع الناس بمثل هذا الكلام لكنه لا خيار له، إنها الحقيقة التي تلقاها، وعليه أن يبلغها دونما تغيير ولا تأخير ،وهي الحقيقة التي يشهد بها واقع البشر وتاريخهم بالفعل يشهد بها تاريخ الأنبياء والدعاة والمصلحين مع أقوامهم، يدعونهم إلي ما فيه خيرهم وصلاح أمرهم، فلا يجدون إلا إعراضا، ولا يظفر الواحد منهم بعد سنوات وسنوات إلا بعشرات من الأنصار أو بمئات علي أكثر تقدير، بل قد يموت الداعي هو ودعوته معا لا يتقبلها منه أحد، ولا يحملها بعده أحد، ولنقرأ في ذلك ما جاء في مطلع أحد أحاديث الرسول (ﷺ) حيث يقول: (عرضت علي الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهيط [٢]، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي ليس مع أحد ٠٠) الحديث [٣].

فإذا حدث في بعض الأحيان أن ظفر الداعية بالملايين أو تحولت أمته كلها معه، فإن ذلك لا يستمر بعده إلا لعدة سنين أو لجيل أو جيلين من الناس، ثم سرعان ما يبدأ التفلت والتحلل والانحدار ،ولهذا كانت أحاديث الرسول (ﷺ) التي يتنبأ فيها بتبدل الأحوال من بعده واقتراب الشر وكثرة الفتن، كما في قوله: (خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) [٤]، وقوله:(ويل للعرب من شر قد اقترب

---

(١) ينظر: المعجم المفهرس: مادة (كثر) ص٥٩٦ وما بعدها.

(٢) تصغير رهط، وهو ما دون العشرة من الرجال. انظر: الصحاح: مادة (رهط).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب: ١٩٩/١ برقم (٢٢٠).

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه: كتاب: فضائل الصحابة . باب: فضائل أصحاب النبى (ﷺ): ١٣٥٣/٣ برقم:٣٤٥١، دار ابن كثير، اليمامة . بيروت، ومسلم فى فى صحيحه: كتاب: فضائل الصحابة . باب: فضل الصحابة ثم الذين يلونهم...:١٩٦٣/٤

٠٠) [١]، وقوله: (ليغشين أمتى من بعدى فتن كقطع الليل المظلم يصبح فيها الرجل فيها مؤمنا ويمسى مؤمنا ويصبح كافرا يبيع أقوام دينهم بعرض من الدنيا قليل ) [٢] وما شابه ذلك.

ومرجع هذه الحقيقة في الأصل إلي المعركة الدائرة بين الإنسان وأهوائه وشهواته، وهذه المعركة هي محل الابتلاء وأساس الحساب، وهي التي يسقط فيها أكثر الناس فيكون الفسق والكفر والضلال.

ومن ثم كان تحذير القرآن كثيرا من اتباع الشهوات والأهواء كما في قوله تعالي: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ آل عمران: ١٤، وقوله: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ مريم: ٥٩، وقوله: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ النازعات: ٣٧ ــ ٤١.

---

برقم:٢٥٣٣. والقرن المذكور في الحديث ليس علي المعني نعرفه اليوم، وإنما المقصود به علي الراجح: الجيل من الناس أو أهل الزمان الواحد، قال الشاعر: إذا ذهب القرن الذي أنت فيهم وخلقت في قرن فأنت غريب. انظر: الصحاح: مادة (قرن).

(٢) جزءمن حديث أخرجه مسلم فى صحيحه: فى كتاب: الفتن وأشراط الساعة . باب: اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج: ٢٢٠٧/٤ برقم: ٢٨٨٠ عن زينب بنت جحش (رضي الله عنها)، انظر: رياض الصالحين ص ٩١.

(٣) أخرجه الحاكم فى المستدرك:٤٨٥/٤ برقم:٨٣٥٤، عن عبدالله بن عمر مرفوعا ، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبى.

**وهذا كله** لا يُنَاقِضُ أن الله تعالي قد خلق عباده علي الفطرة مهيَّئين لتوحيده وطاعته، فإن هذا بحسب الأصل، ثم إنهم بعد ذلك يلوِّثون هذه الفطرة بانحرافات البيئة والتربية والأهواء ونحو ذلك، ومن هذا كان قول الرسول (ﷺ): (كل مولود يولد علي الفطرة، فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه) [1]، وقوله أيضا رواية عن ربه: (خلقت عبادي حنفاء، وإنه أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم)[2].

**ومن المعلوم** أن رسول الله (ﷺ) كان كثيرا ما يحزن، ويهتم لإعراض الناس عن الحق، ويتمني أن لو دخلوا في دين الله جميعا، فكأن هذه الحقيقة التي يقررها القرآن في ثقة وقوة عن حال أكثر الناس مما يبعث الثقة والقوة أيضا في نفس الرسول، فيمضي في دعوته ثابتا، يؤدي ما عليه من البلاغ ويجتهد في النصح، ثم يكل أمر نجاح الدعوة وانتصارها إلي الله تعالي، ومن ثم يفهم جيدا مثل هذه التوجيهات التي كان يتلقاها كثيرا من ربه: ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ **يوسف: ١٠٣ – ١٠٤**، ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ﴾ **الرعد: ٤٠**، ﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ ﴾**الشورى: ٤٨**.

**الشاهد الثاني:** أما هذا الشاهد فيتعلق بموقف القرآن من الحياة الدنيا ومتاعها، وفي ذلك أوضح بداية أن من الحقائق المعلومة أن الإسلام هودين التوازن بين الدنيا والآخرة لا يعرف قتل الإنسان لنفسه بالرهبنة والحرمان وتحريم الطيبات: ﴿

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه: كتاب الجنائز . باب: ماقيل فى أولاد المشركين:١/٤٦٥ برقم:١٣١٩.

(٢) أخرجه مسلم: فى كتاب: صفة الجنة ونعيمها وأهلها . باب: الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار:٤/٢١٩٧ برقم:٢٨٦٥.

وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ الحديد: ٢٧، ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾الأعراف: ٣١ ــ ٣٢، ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ القصص: ٧٧.

كما لا يعرف التواكل والقعود عن السعي وإهمال عمارة الأرض: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾الملك: ١٥، ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ هود: ٦١، وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ الجاثية: ١٣.

كما لا يعرف الازدواجية الموهومة بين الدنيا والآخرة: إنهما مرحلتان متصلتان لا متقابلتان، فإن الدنيا ما هي إلا حياة علي منهج ما يحاسب عليه الإنسان في الآخرة، وأساس الحساب هو النظر في هذا المنهج: إن كان من عند خالق الحياة أم من عند هذا الإنسان.

**لكن ذلك كله** لم يمنع القرآن من الصدع بحقائق معينة عن الدنيا يرددها ثابتة واثقة بغير لبس أو التواء: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾آل عمران: ١٨٥، ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ النساء: ٧٧، ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ

عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾الكهف: ٤٥ – ٤٦﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾العنكبوت: ٦٤،﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ الحديد: ٢٠.

نعم هذه هي الحقيقة التي لم يخش القرآن فيها عبيد الدنيا ومتاعها، ولو كان من عند غير الله لسترها أو هَادَنَ فيها، بل لما أَدْرَكَها أصلا، لأن الكذَّاب نفسه طالب دنيا، فكيف يدرك حقيقتها ويرددها وهو غارق فيها؟!.

**والذى أودُّ بيانه هو**: أن هذه الحقيقة لا تُنَاقِض أبدا ما سبق أن ذكرته في بداية الكلام، فجميع هذه الآيات التي أرددها وأمثالها، إنما هدفها تحذير الإنسان من سطوة شهواته وأهوائه، وهي سطوة جبارة غلابة سبق في الشاهد الأول معرفة أثرها المتمثل في انحراف أغلب الناس وفسقهم وضلالهم، وإن الواقع المؤلم لماضي الإنسان وحاضره ليؤيد هنا أيضا واقع الطغيان الذي يُسَوّدُ صفحات التاريخ حتي في العصر الذي يسمي بعصر حقوق الإنسان، فإن هذه الحقوق – في الواقع – ليست إلا حقوق الأقوياء، وليست إلا مصالحهم وليست إلا المنظمات والقوانين التي تحمي هذه المصالح ، وإلا فما معني (الفيتو) – وهو مثال واحد – في منظمة الأمم المتحدة؟! أليس معناه أن الاعتراض من حق الأقوي فقط ولمصلحته فقط حتي لو ذهب الأضعف إلي الجحيم [1]؟!

(١) يراجع في ذلك تفاصيل أخري من خلال دراسة جادة نشرتها جريدة (المسلمون) بعددها رقم (٣٦٧) للكاتب الإسلامي: نبيل شبيب بعنوان: أزمة الضمير في الواقع الإنساني المعاصر.

ما معني الدنيا إذا في ظل هذا الفساد؟ هل هي أكثر من لهو ولعب وتفاخر وتكاثر في الأموال والأولاد؟! بل إن هذه الصفات لتعد هينة بالقياس إلي ما وراءها من هذا الواقع بكل تفاصيله المرة [1].

وما قيمة المتاع الدنيوي بالفعل؟ إن النظرة إلي هذا المتاع تتفاوت – بلا شك – في الدنيا من شخص إلي آخر، لكنها في الآخرة ستكون واحدة لدي الجميع الكل سيتفق علي أن هذا المتاع ليس بشئ إلي جوار ما عاينه من النعيم المقيم أو العذاب الأليم،وهذا ما يصوره أدق تصوير قول الرسول (ﷺ): (يؤتي بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ في النار صبغة ثم يقال: يا ابن آدم هل رأيت خيرا قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يارب، ويؤتي بأشد الناس بؤسا في الدنيا من أهل الجنة فيصبغ صبغة في الجنة، فيقال: يا ابن آدم هل رأيت بؤسا قط؟ هل مربك شدة قط؟ فيقول: لا والله ما مر بي بؤس قط ولا رأيت شدة قط)[2].

***وأخيرا لعله بعد ما سبق*** يفهم سر ترويض الرسول (ﷺ) لأصحابه علي مقاومة الدنيا، وتحذيره الدائم لهم من فتنتها كما في قوله: (... فو الله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشي أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت علي من كان قبلكم

---

(٢) وليس معني وصف القرآن للدنيا بهذه الصفات أنه يقرها أو يهمل إصلاحها وإنما هو يصف واقعا كائنا .. وإلا فإنه في كثير من آياته الأخري يشن حملة ضارية علي كل ألوان الفساد.

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه: كتاب: صفة القيامة والجنة والنار . باب: صب أنعم أهل الدنيا فى النار وصبغ أشدهم بؤسا فى الجنة: ٢١٦٢/٤ عن أنس بن مالك مرفوعا، وانظر: رياض الصالحين: ص ١٨١.

فتنافسوها كما تنافسوها [١] فتهلككم كما أهلكتهم) [٢] وقوله: (إن مما أخاف عليكم من بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها)[٣].

ولقد صدق (ﷺ)، فإن ما فتح من زهرة الدنيا وزينتها علي دولته من بعده كان من أهم أسباب انحدارها التدريجي من القمة التي بلغتها، و لقد قاوم هذه الزينة خلفاؤه الراشدون وتلاميذه الأوائل فبلغوا هذه القمة، ثم تغيرت الأحوال من بعدهم فكان ما كان.

**الوجه الثاني:** وهو يختص بالتكرار حين يكون دليلا علي الوضوح والرسوخ التام في مضمون الكلام، وذلك أن الحق يحب الوضوح دائما ولا يخشاه، بينما الباطل يكرهه ويؤثر عليه الغموض والتعقيد حتي يستر حقيقته، كما أن الحق أيضا يكون راسخا أي ثابتا تماما في خطاب صاحبه، ليس بالأمر العارض أو العشوائي إنما هو الحقيقة المطردة التي لا تتخلف ولا تغيب كلما جاءت مناسبتها .

**وَتُقَدم المثاني القرآنية أيضا في ذلك شواهد متعددة، أكتفي منها بالشاهدين التاليين:**

***هذا الشاهد*** يتعلق بحديث القرآن عن السنن الإلهية الثابتة بشأن مصير أهل الباطل في مواجهتهم للحق وصدهم عن سبيله، وهو حديث ذو زاويا متعددة متكاملة، ومن ثم فإنه لا يكفي لإيضاحه أن أمثل له ببعض نصوصه، وإنما

---

(٢) أي: تتصارعون عليها كما تصارعوا.

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه: أبواب الجزية والموادعة . باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب:١١٥٢/٣ برقم: ٢٩٨٨، ومسلم فى صحيحه: كتاب: الزهد:٢٢٧٣/٤ برقم:٢٩٦١.

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه: كتاب:الزكاة . باب: تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا:٧٢٨/٢ برقم:١٠٥٢.

أعرض هذه النصوص كلها أولا، ثم أتناولها بعد ذلك بالتعليق الموضح لكل زواياها وهي كالتالي: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ غافر: ٨٤ ــ ٨٥، ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ فاطر: ٤٢ ــ ٤٣، ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾ الإسراء: ٧٦ ــ ٧٧، ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ الأنفال: ٣٨، ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ الأحزاب: ٦٠ ــ ٦٢، ﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ الفتح: ٢٢ ــ ٢٣.

**وأوضح الآن الجوانب المختلفة لهذه النصوص من خلال التعليقات التالية:**

**التعليق الأول:** إن سنة الله تعالي في عقاب الأمم الغابرة علي جحدها للحق وإصرارها علي الباطل هي إهلاكها إهلاكا تاما بعذاب عاجل، كما في قول تعالي: ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۖ ﴾ العنكبوت: ٤٠، وذلك لأن كل نبي من أنبيائهم كان

يأتيهم بآية أو بأكثر من آية حسية ظاهرة تشهد بصدقة، فيكون إصرارهم علي الكفر برغم هذه الآيات دليلا علي فسادهم التام وموجبا بالتالي لعدم إمهالهم وللقضاء عليهم.

***التعليق الثاني:*** إن الله تعالي لم يجعل المعجزة الأساسية الدالة علي صدق رسول الخاتم محمد (ﷺ) معجزة حسية، كما كان شأن الأنبياء السابقين عليه، وإنما جعلها معجزة بيانية عقلية، وهي القرآن الكريم، وذلك لتبقي مع الرسالة الخاتمة دليلا عليها وداعية لها إلي يوم الدين.

***وبناء علي ذلك:*** فإن الله تعالي لم يجعل عقاب الأمة الخاتمة أيضا٠ حين تجحد أو تنحرف . عقابا حسيا يجتاحها اجتياحا، وإنما جعله شقاء في حياتها وبأسا شديدا بين أبنائها، وذلك كما ورد في قوله تعالي: ﴿ **قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ** ﴾ الأنعام: ٦٥، وقد ورد في الحديث عن جابر (ﷺ) أنه لما أنزلت هذه الآية ﴿ **قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ** ﴾ قال الرسول (ﷺ) (اللهم لا تفعل ﴿ **أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ** ﴾ قال: اللهم لا تفعل، ﴿ **أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ** ﴾ قال: "لا تفعل، فقال الله تعالي: أما هذه فلا لألبسنهم شيعا ولأذيقن بعضهم بأس بعض)[1].

**والسؤال هو:** إذا كان الله تعالي قد أعفي الأمة الخاتمة من هذه العقوبات التي كان ينزلها بالأمم السابقة، فما معني هذه الآيات التي يهددهم فيها بمثل هذه العقوبات؟ كما هو وارد في بعض هذه النصوص التى أعلق عليها وهي بالتحديد: آيات سورة فاطر والإسراء وآل عمران.

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه: فى كتاب: االتفسير . باب قوله تعالى:﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ : ١٤/١٦٠ برقم :٤٢٦٢ .

الحق أن الجواب علي ذلك لا يفهم إلا في ضوء أصل هام من أصول الخطاب القرآني، وهو واقعية هذا الخطاب أو تعامله مع كل حال حسب ما يناسبها تماما، والحال التي كان عليها أعداء الإسلام إبان تنزل هذه النصوص هي المجابهة السافرة لدعوته والتحرش الدائم للقضاء عليها، وبخاصة في الفترة المكية (التي تنتمي إليها آيات سورتي: فاطر والإسراء)، وصدر الفترة المدنية (التي تنتمي إليها آية سورة آل عمران)، فكان الذي يلائمهم هو المجابهة السافرة أيضا يمثل هذه التهديدات المفزعة.

***التعليق الثالث:*** وهو عن النص الخامس، من حيث إنه تهديد من الله تعالي بعقاب المنافقين ومن يسير في ركابهم من المذبذبين والمرجفين، وإن كان هذا العقاب ليس منه سبحانه مباشرة، وإنما هو منه بأيدي الرسول (ﷺ) والمؤمنين، وهذه سنة إلهية أيضا، سنة تطهير جو الحق تماما من رواسب الباطل إن لم يستطع هذا الباطل أن يحجم رواسبه أو يكف أذاها تماما عمن حوله، فالحق الذي يعلمه الجميع أن هذه الرواسب التي تعمل من تحت السطح أخطر كثيرا من الباطل الواضح السافر، ومن ثم كان التهديد والإغراء بالتخلص من أصحابها مفزعا شديدا أيضا﴿ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴾.

***التعليق الرابع:*** عن النص السادس، فهو . في الحقيقة . حفز للمؤمنين وتقوية لقلوبهم في مواجهة أعدائهم، إنه يقرر سنة حقيقية أيضا، وهي: ضعف الباطل أمام الحق وحتمية اندحاره أمامه، طالما استكمل المنتمون إلي الحق شروط النصر المطلوبة، وهي الالتزام الفعلي بمقتضيات هذا الحق مع إعداد العدة والأخذ بالأسباب.

*وبعد هذه التعليقات التفصيلية أخلص إلي النتيجة التي أريدها*: إن الدلالة العامة لهذه النصوص تعني أن هناك نظاما أو قانونا لا يمكن أن يتخلف بشأن

مصير الباطل في تصديه للحق، وهو اندحاره وتغلب الحق عليه، مهما أصيب أهله أحيانا ببعض العثرات أو النكسات، فما هي إلا ابتلاءات لتربيتهم وتمحيصهم، ثم تكون العاقبة لهم في نهاية الأمر.

وهذه *الدلالة* – في الواقع – من أقوي ما يشهد بصدق القرآن لأنها دلالة ناصعة موافقة لفطرة الإنسان أو لإحساسه الطبيعي التلقائي، وهو أن العبث لا يمكن أن يكون هو قانون الحياة ما دام في هذه الحياة جادون مخلصون وما دام فيها عابثون ومنحرفون، فلا يمكن أن يتساوي الفريقان: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ **فاطر: ١٩ ــ ٢٢.**

**ومما يُدَعِّم ذلك:** أن الكون نفسه . خارج نطاق الحياة الإنسانية . إنما يقوم علي ناموس ثابت واضح في جميع شئونه، الأجرام السماوية بمواقعها ومداراتها الدقيقة، قوانين المادة وتركيبها وتغيرها بجميع أنواعها، حياة النبات والحيوان إلي آخره، فلا عجب أن تقوم الحياة الإنسانية أيضا، وهي من أرقي مراتب الوجود الكوني . علي نظام دقيق لا يتخلف، ولا أقصد . بالطبع . مجرد رقي هذه الحياة من الجانب العضوي أو المادي، وإنما أقصد . خصوصا. رقيها بالتميز الإنساني المتعلق بكون الإنسان كائنا عاقلا صاحب رسالة، وبالتالي فإن هذه الرسالة لا يمكن أن تقوم علي العبث، لأن العبث إذا كان منتفيا عن كل أنواع الوجود التي ذكرتها فإنه ينتفي . من باب أولي . عن الوجود الإنساني.

إن هذا الناموس الكوني الذي تحدثت عنه ليتضح تماما في نوع آخر من المثاني القرآنية التي تتحدث عن (التسخير) كما في قوله تعالي: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ

حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ الأعراف: ٥٤، وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ إبراهيم، وغير ذلك من الآيات.

فبمقارنة المثاني السابقة بتلك التي عرضتها أولا عن السنن الثابتة في مصير الباطل، وبتلك التي تتحدث عن خلق الكون بالحق كما مر في موضع سابق تتكامل بها – كما أري – الصورة تماما، وتبدوا منظومة حية توقظ الإنسان من غفلته، وتعرفه أن عالمه ليس بدعا من بقية الكون، وإنما هو جزء منه لابد أن يتوحد معه في نظام واحد، هو نظام الطاعة لله (ﷻ) سواء تمت هذه الطاعة بالتسخير أو تمت بالاختيار.

**الوجه الثالث:** هذا الوجه يختص بالتكرار حين يكون دليلا علي توافق مضمون الكلام وتناسقه، فلا يتناقض شئ منه مع غيره ولا يصادمه، بل يعضده ويصدقه مهما كانت مرات تردده ومهما تنوع هذا التردد في مناسباته وأساليبه المختلفة. وأتخير من المثانى القرآنية شاهدين أيضا يوضحان هذا الكلام:

الشاهد الأول ويتعلق بموضوع "الاستغفار" في القرآن:

**والذي يبدو عموما من الكتاب والسنة:** أن (الاستغفار) من أعظم ما يذكر به العبد ربه ويتقرب به إليه، ولم لا؟ أليس الخطأ من لوازم الإنسان؟ وهو . أي الخطأ . في الآخرة أيضا مناط الفلاح والخسران؟ إن تم العفو عنه فإلي دار النعيم، وإن تم الأخذ به فإلي دار الجحيم، لذا فإن الاستغفار أيضا يجب أن يكون من لوازم العبد.

وقد عبر الحديث الشريف عن ذلك بصيغة (فعال) التي تعني الكثرة والتكرار، فقال: (كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون) [1] فإن كان (فعالا) في الخطأ فيجب أن يكون أيضا (فعالا) في التوبة.

إن أخطاء الإنسان تحجب رحمة الله عنه، وتحجب عنه الرزق، وتنزل به البلاء، ومن ثم فإن كثرة الاستغفار هي مفتاح هذه الرحمة ومفتاح الرزق ووسيلة رفع البلاء.

ولأجل ذلك كله وجدت مثل هذه النصوص والتوجيهات القرآنية: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ النمل: ٤٦، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ الأنفال: ٣٣ ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ محمد: ١٩، ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ نوح: ١٠-١٢، ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ﴾ الكهف: ٥٨، ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ الشورى: ٣٠.

وكانت أيضا مثل هذه الأحاديث والتوجيهات النبوية: (أيها الناس توبوا إلي ربكم فوالذى نفسي بيده إنى لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر مائة مرة)

(١) أخرجه ابن ماجة فى سننه: أبواب الزهد . باب ذكر التوبة:٥/ ٣٢١ برقم:٤٢٥١، طبع دار الرسالة العالمية، والحاكم فى المستدرك: ٢٧٢/٤، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

[1]، (إنه ليغان علي قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة)، عن ابن عمر قال: (كنا نعد لرسول الله (ﷺ) في المجلس الواحد يقول: رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم مائة مرة) أو قال:(أكثر من مائة مرة)[2].

والحق أن المثاني القرآنية المتعلقة بموضوع "الاستغفار" كثيرة ومتنوعة، لكن الذي يعنينى منها ما يتعلق بهذا الملحظ الدقيق الذي أبداه ابن تيمية – في ثنايا حديثه عن هذا الموضوع . وهو توجيه الله تعالي لعباده بأن يختموا الأعمال الصالحات بالاستغفار، يقول: وقد أمر الله . سبحانه . أن يختموا الأعمال الصالحات بالاستغفار، فكان النبي (ﷺ) إذا سلم من الصلاة يستغفر ثلاثا يقول: (اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام) كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح عنه [3]، وقد قال تعالي: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ **آل عمران: ١٧، فأمرهم أن يقوموا بالليل ويستغفروا بالأسحار، وكذلك ختم سورة (المزمل) وهي سورة قيام الليل بقوله تعالي:** ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾، **وكذلك قال في الحج:** ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ **البقرة: ١٩٨ –**

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه: فى كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار . باب:استحباب الاستغفار والاستكثار منه:٤/٢٠٧٥ برقم:٢٧٠٢.

(٢) أخرجه أبو داود فى سننه:٢/٦٢٧ برقم:١٥١٦ طبع دار الرسالة،وابن حبان فى صحيحه:٣/٢٠٦ برقم ٩٢٧، وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود:٥/٢٤٨، طبع مؤسسة غراس للنشر والتوزيع الكويت.

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه:كتاب: المساجد ومواضع الصلاة . باب: استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته:١/٤١٤ برقم:٥٩١عن ثوبان.

١٩٩، بل أنزل (ﷻ) في آخر الأمر لما غزا النبي (ﷺ) غزوة تبوك وهي آخر غزواتـــــه: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ التوبة، وهي من آخر ما نزل من القرآن.

**وقد قيل:** إن آخر سورة نزلت قوله تعالي: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾ ﴾النصر، فأمره الله تعالي أن يختم عمله بالتسبيح والاستغفار.

وفي الصحيحين عن عائشة(ﷺ)-أنه (ﷺ) كان يقول في ركوعه وسجوده: (سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفرلي ٠٠ يتأول القرآن)(١).

**إنه ملحظ** عظيم وجميل حقا يستمد عظمته وجماله من مغزي المثاني التي تتعلق به، ومن البصيرة المشرقة التي توصلت إلي هذا المعني، فختام العبدلأعماله الصالحات بالاستغفاريحمل معاني عظيمة، **منها:** خوفه من ذنوبه وسيئاته أن تغلب هذه الأعمال أو تحبطها فلا يكون لها قيمة، فهو يقدم عمله الصالح، ثم يتبعه بطلب المغفرة حماية لهذا العمل من أثرالذنوب والسيئات، **ومنها:** خوفه أيضا ألا يتقبل الله منه عمله الصالح بسبب معاصيه السابقة﴿**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ** ﴾ **المائدة: ٢٧**، والمعلوم أن بعض المعاصي قد تؤدي إلي إفساد النيات والتوجهات وإفساد ما يترتب عليها بالتالي من الأعمال فلا تقبل من

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: من ١٣٥ – ١٣٦، والحديث: أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه:٢٠٧/١، ومسلم ٥٠/٢، وأبوداود ٣٢٧/١، والنسائى: ٢١٩/٢.

صاحبها، ويكون حاله هو حال: ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴾ **الكهف:** ١٠٤ ،**ومنها:** أن هذا الاستغفار كأنما هو نوع من الشكر الذي يقدمه العبد لربه علي ما وفقه وهداه لعمل الصالحات برغم ما سلف من ذنوبه وسيئاته، **ومنها:** أن العمل الصالح قد يدخل فيه صاحبه بنية صحيحة ثم يقصر أو يسئ أثناء أدائه بأن لا يوفيه حقه، أو يهمل بعض فروعه، أو يتبعه بما يشبه الفخر أو المن أو الأذي، فهو يستغفر أيضا لعفو الله عنه وليجبر نقصه في كل ذلك، **فمثل هذا** الاستغفار في ختام الصالحات كأنه . في عبارة موجزة . تتميم لها وزيادة في فضلها بحمايتها من أثر السيئات ويجبر نقصها وبالشكر عليها ٠

والمتأمل في هذه المثاني التي ذكرها ابن تيمية في كلامه السابق، لا يبهره فيها فقط هذا المغزى الذي أشرت إليه، وإنما يبهره أيضا تعاضدها وتوافقها برغم ما بينها من بعد في المناسبات والمسافات الزمنية،

**فمنها:** ما هو في صفات المتقين المستغفرين بالأسحار أي في ختام عبادة يومهم وليلتهم، ومنها: المعقب علي موضوع قيام الليل، ومنها: المتعلق بالانتهاء من أهم أركان الحج، وهو الوقوف بعرفة، ومنها: المتعلق بالذين تخلفوا عن غزوة تبوك، ومنها: المتعلق بنصر الله تعالي وإظهاره لدينه. هذا من ناحية المناسبات.

**أما من الناحية الزمنية** فإن بعضها من سورتي: البقرة وآل عمران، وهما من أوائل ما نزل بالمدينة بعد الهجرة، وبعضها الآخر من سورتي التوبة والنصر، وهما من أواخر ما نزل بالمدينة، ثم هناك نص سورة المزمل، وهي سورة مكية وإن كانت آية هذا النص نفسها مدنية.

ولو أردت أن أذهب أبعد – من هذه الناحية الزمنية –، فسأجد في سورة الذاريات (وهي مكية كلها) قوله تعالي: ﴿ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ١٨ ﴾ **الـذاريات:** ١٧ – ١٨، مغزى عميقا لايتخلف ولا يضطرب برغم هذه المسافات الموضوعية والزمنية بين النصوص التي تعبر عنه، ومثل ذلك لايتأتى

مِنْ كَذَّاب أبدا، لأن الكذاب محجوب عن الحقائق الجليلة من ناحية، ولا يستطيع التوافق أو التناسق الدائم من ناحية أخري، وكيف يستطيع ذلك إذا كان الأصل في شخصيته هو التقلب والاضطراب، وهما صفتان مضادتان تماما للتوافق والتناسق.

**الشاهد الثاني** ويتعلق بالتكرير المشهور في سورة (الكافرون) كما هو واضح في نصها التالي: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾**الكافرون: ١ – ٦.**

وللإمام ابن القيم حول هذه السورة عدة خواطر وتأملات تعد من أدق ما أدلي به حول كتاب الله ومن أعظمها إمتاعا في الوقت نفسه،وقد أبدي خواطره وتأملاته هذه بنوع من الإسهاب خلال إحدي عشرة مسألة يضيق المجال هنا عن تتبعها (١)،

ومن ثم فسأركز علي ما يُوفي بالغرض فقط، وهو: بيان كيفية توافق هذه السورة وتناسقها بعضها مع بعض من جهة،، وكيفية توافقها وتناسقها مع بقية القرآن من جهة آخري، *وذلك من خلال النقاط التالية:*

**الأولي:** يتحدث ابن القيم في المسألة الثانية من مسائله الإحدى عشرة عن فائدة تكرير الأفعال في السورة، ويذكر أن فيها عدة وجوه يرجح منها الوجه الذي يقول فيه: " قوله: ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ نفي للحال والمستقبل وقوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ مقابله أي لا تفعلون ذلك، وقوله: ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ أي لم يكن مني ذلك فقط قبل نزول الوحي، ولهذا أتي في عبادتهم بلفظ الماضي فقال: ﴿مَّا عَبَدتُّمْ﴾، فكأنه قال: لم أعبد قط ما عبدتم، وقوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾

(١) يراجع: التفسير القيم للإمام ابن القيم: من ص٥٢٤ إلي ص ٥٣٥ .

مقابله، أي لم تعبدوا قط في الماضي ما أعبده أنا دائما، وعلي هذا فلا تكرار أصلا، وقد استوفت الآيات أقسام النفي ماضيا وحالا ومستقبلا عن عبادته وعبادتهم بأوجز لفظ وأخصره وأبينه" [1].

**ويقصد ابن القيم بقوله:** " فلا تكرار أصلا " أن كل آية من الآيات التي ذكرها قد أدت معني مطلوبا لا يؤديه غيرها وخصوصا آية: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ التي تكررت كما هي مرتين، لكنها برغم ذلك قد أدت معنين مختلفين وذلك بحسب ما قبلها.

**ففي المرة الأولي** كان قبلها قوله: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ والكلام فيه عن الفعل ﴿أَعۡبُدُ﴾ الذي يفيد – بصيغة المضارعة – التجدد الشامل للحاضر والمستقبل، فكانت صيغة ﴿لَآ أَعۡبُدُ﴾ مفيدة لنفي عبادة الرسول لمعبوديهم حالا واستقبالا، ثم كانت الآية التالية: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ مقابلة لما سبقها أي: أنتم أيضا لستم عابدين ما أعبد، ***وفي المرة الثانية*** كان قبلها قوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ وهو يختص بالزمن الماضي أي: أن الرسول (ﷺ) لم يسبق قط أن شاركهم في عبادتهم، بدليل أن الفعل المذكور هو ﴿عَبَدتُّمۡ﴾ بصيغة الماضي، ثم جاءت الآية موطن الحديث ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ فكانت مقابلة لما سبقها أيضا، أى:أنهم لم يعبدوا قط فى الماضى ما يعبده الرسول دائما، وهي قد أفادت هذا المعني الجديد، لأن صيغة ﴿مَآ أَعۡبُدُ﴾ تعطي معنيين مختلفين تبعا للآية التي قبلها، فالآية التي قبلها في المرة الأولي كانت تختص بالحال والاستقبال. كما ذكرت .، فأفادت هذه الصيغة بعدها الحال والاستقبال أيضا.

(١) التفسير القيم: ص ٥٢٧.

**أما الآية التي قبلها في المرة الثانية** فكانت تختص بالزمن الماضي، فأفادت الصيغة هذا المعني الجديد، أي لم تعد تقتصر علي الزمنين الحاضر والمستقبل، وإنما شملت الماضي أيضا، وليس ذلك بحكم دلالة الصيغ، وإنما بحكم وظائف (السياق) الذي انتهي إلي هذه الدلالة في المرة الثانية بعد أن وضح أواستغرق حال الرسول (ﷺ) في جميع الأزمان.

**الثانية:** ويتحدث في المسألة الرابعة من مسائله عن النفي الوارد في السورة: لم لم يأت في حق الكافرين إلا باسم الفاعل[١] وفي جهته (ﷺ) جاء بالفعل تارة[٢] وباسم الفاعل أخري[٣].

ويجيب ابن القيم عن ذلك بما يزيد المسألة السابقة وضوحا، وبما يجلي المزيد من أسرار التكرار في هذه السورة عموما فيقول: " ٠٠ فذلك – والله أعلم – لحكمة بديعية وهي: أن المقصود الأعظم براءته من معبوديهم بكل وجه، وفي كل وقت، فأتي أولا بصيغة الفعل الدالة علي الحدوث والتجدد[٤]، ثم أتي في هذا النفي بعينه بصيغة اسم الفاعل[٥] في الثاني[٦]: أن هذا ليس وصفي ولا شأني، فكأنه قال: عبادة غير الله لا تكون فعلا لي[٧] ولا وصفا لي[٨] ، فأتي بنفين[٩] لمنفيين[١]

(١) وذلك في قوله تعالي: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ في الآيتين الثالثة والخامسة.

(٢) وهو قوله: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ في الآية الثانية.

(٣) وهو قوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ في الآية الرابعة.

(١) وهي صيغة: ﴿لَآ أَعۡبُدُ﴾ في الآية الثانية.

(٢) وهي التي في قوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ في الآية الرابعة.

(٣) أي: في هذا النفي الثاني.

(٤) وهو ما أفادته صيغة الفعل في الآية الثانية.

(٥) وهو ما أفادته صيغة اسم الفاعل في الآية الرابعة.

(٦) النفي الأول: ﴿لَآ أَعۡبُدُ﴾ والنفي الثاني: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ﴾.

مقصودين بالنفي، وأما في حقهم فإنما أتي بالإسم الدال علي الوصف والثبوت دون الفعل أي: أن الوصف الثابت اللازم العائد لله منتف عنكم[٢] فليس هذا الوصف ثابتا لكم، وإنما ثبت لمن خص الله وحده بالعبادة، ولم يشرك معه فيها أحدا"[٣].

وهنا ينتقل ابن القيم من نطاق السورة نفسها كي يربط بينها وبين بقية القرآن، حيث يقول عقب كلامه السابق مباشرة: " وأنتم لما عبدتم غيره فلستم من عابديه، وإن عبدوه في بعض الأحيان، فإن المشرك يعبد الله ويعبد معه غيره، كما قال أهل الكهف: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ **الكهف: ١٦**، أي اعتزلتم معبوديهم، إلا الله، فإنكم لم تعتزلوه [٤]، وكذلك قال المشركون عن معبوديهم: ﴿**مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ**﴾ **الزمر: ٣**، فهم كانوا يعبدون معه غيره، فلم ينف

---

(٧) المنفي الأول: أن تكون عبادة غير الله فعلا له، والمنفي الثاني أن تكون عبادة غير الله وصفا له.

(٨) وهو الوصف الذي يقتضيه اسم الفاعل في قوله: " ولا أنتم عابدون ما أعبد " في الآية الثانية وهو الذي تكرر مرة أخري في الآية الخامسة ليؤكد انتفاء عبوديتهم لله علي وجه الثبوت واللزوم.

(٩) التفسير القيم: ص ٥٣٠.

(١) جعل ابن القيم النص السابق من كلام أهل الكهف أنفسهم باعتبار أنه امتداد لحديثهم المذكور قبل هذا النص،وإن كان المحتمل أيضا أنه خطاب من الله لهم، يشد أزرهم ويثبتهم ويبشرهم، بدليل ما بعده مباشرة: " فأووا إلي الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا ". وأيا ما كان الأمر فإنه لا يغير شيئا من مقصود ابن القيم في كلامه.

عنهم الفعل لوقوعه منهم، ونفي الوصف لأن من عبد غير الله لم يكن ثابتا علي عبادة الله موصوفا بها [١].

**ومعني كلام ابن القيم الأخير**: أن الله تعالي لم ينف عنهم فعل العبادة حيث أثبته في آية سورة الكهف ﴿يَعْبُدُونَ﴾، وفي آية سورة الزمر ﴿نَعْبُدُهُمْ﴾، وفي سورة الكافرون ﴿تَعْبُدُونَ﴾، وذلك لأنهم كانوا يعبدون الله فعلا في بعض أحوالهم، وإن كانوا يشركون معه غيره ، لكنه نفى الوصف عنهم، لأنه لا يستحقه إلا الثابت علي عبادة الله وحده، فهم إذا ليسوا (عابدين) وإن (تعبدوا) أحيانا، **ولذلك** أتبع ابن القيم كلامه السابق أيضا بقوله: (فتأمل هذه النكتة البديعية، كيف تجد في طيها أنه لا يوصف بأنه عابد لله، وأنه عبده المستقيم علي عبادته إلا من انقطع إليه بكليته، وتبتل إلي تبتيلا، لم يلتفت إلي غيره ولم يشرك به أحدا في عبادته، وأنه إن عبده وأشرك معه غيره، فليس عابدا الله ولا عبدا له، وهذا من أسرار هذه السورة العظيمة الجليلة التي هي إحدي سورتي الإخلاص التي تعدل ربع القرآن كما جاء في بعض السنن، وهذا لا يفهمه كل أحد ولا يدركه إلا من منحه الله فهما من عنده فله الحمد والمنة)[٢].

**الثالثة:** في المسألة السادسة يُبْدِي ابن القيم مَلْحظاً جديداً يتطرق فيه إلي الخاصية الأساسية لسورة "الكافرون" مع مواصلة ربط السورة ببقية القرآن وبخاصة سورة "الإخلاص" مقدما في ذلك نظرات "تسبي القلوب وتأخذ بمجامعها" علي حد تعبيره، **فيقول:** "وأما المسألة السادسة وهي اشتمال هذه السورة علي النفي المحض، فهذا هو خاصة هذه السورة العظيمة، فإنها سورة البراءة من الشرك كما

(٢) التفسير القيم: ص ٥٣٠.

(١) المصدر السابق: ص ٥٣٠.

جاء في وصفها: إنها براءة من الشرك[1]، فمقصودها الأعظم هو البراءة المطلوبة بين الموحدين والمشركين، ولهذا أتي بالنفي في الجانبين[2] تحقيقا للبراءة المطلوبة، وهذا مع أنها متضمنة للإثبات صريحا، فقوله: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ براءة محضة ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ إثبات أن له معبودا يعبده وحده، وأنتم بريئون من عبادته، فتضمنت النفي والإثبات [3] ، وطابقت قول إبراهيم إمام الحنفاء: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾الزخرف: ٢٦ – ٢٧، وطابقت قوله الفئة الموحدة:﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾الكهف: ١٦، فانتظمت حقيقة " لا إله إلا الله[4] "، ولهذا كان النبي (ﷺ) يقرنها بسورة " ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٞ﴾ في سنة الفجر وسنة المغرب . فإن هاتين السورتين: سورتا الإخلاص، وقد اشتملتا علي نوعي التوحيد الذي لا نجاة للعبد ولا فلاح إلا بهما، وهما: توحيد

(٢) هذا الوصف لا يقتضي اللبس مع سورة (التوبة) لأن سورة (الكافرون) براءة من (الشرك) أي من المبدأ نفسه، بينما سورة التوبة – التي هي من أواخر القرآن المدني – براءة من (المشركين) أنفسهم كفئة بشرية ظلت مصرة علي كفرها وكيدها للإسلام في قاعدته التي انطلق منها وبرغم انتشاره وظهور أمره، ومن ثم فإن السورة كانت إنذارا نهائيا لهم بتطهير هذه القاعدة منهم إن لم ينقادوا لدين الله ويدخلوا فيه مع الداخلين أفواجا.

(٣) وهما: جانب الموحدين المتمثل في الآيتين الثانية والرابعة من السورة وجانب المشركين المتمثل في الآيتين الثالثة والخامسة.

(١) وإن كان النفي بالطبع هو خاصتها الأساسية كما ذكر في البداية.

(٢) هذه الحقيقة هي نفي كل المعبودات الباطلة وإثبات العبادة لله وحده،وذلك أيضا هو مضمون ما ذكر من سورة الكهف ومضمون قول إبراهيم ومضمون سورة (الكافرون).

العلم والاعتقاد[1] المتضمن تنزيه الله عما لا يليق به من الشرك والكفر والوالد والوالد وأنه إله أحد صمد ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ فيكون له فرع ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ فيكون له أصل ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ فيكون له نظير ومع هذا فهو الصمد الذي اجتمعت له صفات الكمال كلها.

فتضمنت السورة إثبات ما يليق بجلاله من صفات الكمال ونفي مالا يليق به من الشريك أصلا وفرعا ونظيرا فهذا توحيد العلم والاعتقاد، والثاني: توحيد القصد والإرادة وهو ألا يعبد إلا إياه فلا يشرك به في عبادته سواء بل يكون وحده هو المعبود.

وسورة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ مشتملة علي هذا التوحيد، فانتظمت السورتان نوعي التوحيد وأخلصتا له فكان (ﷺ) يفتتح بهما النهار في سنة الفجر ويختتمه بهما في سنة المغرب وفي السنن (أنه كان يوتر بهما " فيكونان خاتمة عمل الليل كما كانا خاتمة عمل النهار)[2]

**وهذاالكلام الأخير**: أن سورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ قد أخلصت لبيان العلم الحق والمعتقد الحق في الله تعالي، أما سورة "الكافرون" فقد أخلصت لتوحيد التوجه والتعبد، وهو . بالطبع . مقتضي التوحيد الأول، فالرب الأحد الصمد الذي له وحده كل صفات الكمال هو الذي يستحق أن يعبد وحده أيضا، فالتوحيد الأول "علمي" والتوحيد الثاني "عملي" ، **ولأن** كل سورة من هاتين السورتين قد محضت كلها لقضية التوحيد فقد سميت كلتاهما بسورة "الإخلاص" ، وإن كانت هذه التسمية ألصق بسورة "قل هو الله أحد"، لأن التوحيد الذي تضمنته وارد بأسلوب

---

(٣) هذا هو النوع الأول الذي تضمنه سورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وسوف يذكر فيما بعد النوع الثاني الذي تتضمنه سورة (الكافرون)

(١) التفسير القيم: ص ٥٣٠ – ٥٣١.

الإثبات، أما التوحيد الذي تضمنته سورة "الكافرون" فوارد بأسلوب النفي، وما يقدم عن طريق الإثبات يكون . عادة . أقرب إلي المباشرة، وأسبق إلي الذهن مما يقدم عن طريق النفي، ولأن التوحيد أيضا هو أساس الدين كله، فقد كان لهاتين السورتين فضلهما الخاص كما ذكر ابن القيم حتي إنه (ﷺ) كان يفتتح بهما صلاته في النهار ويختتمها بهما في آخره ويوتر بهما أيضا آخر الليل، كأنه بذلك يجعل " التوحيد " بدء يومه ونهايته وختام ليله[1].

**وبعد:** فلعل هذه الحقائق والأسرار التي أفاض الله بها ابن القيم بشأن التكرار في سورة "الكافرون" تكون دليلا يضاف إلي غيره من الأدلة الناصعة التي تشهد بما أركز عليه دائما في هذا البحث: وهو أن التكرار في القرآن مصدر من مصادر عطائه وثرائه الحقيقية لا مجرد أداة يتوصل بها إلي بعض الأغراض الجزئية أو الإضافية.

ولقد حق لابن القيم بعد إدلائه بهذه الحقائق والأسرار أن يمتلئ بالغبطة والسعادة وشكر الله فيقول: "فهذا ما فتح الله العظيم به من هذه الكلمات اليسيرة والنبذة المثيرة إلي عظمة هذه السورة وجلالتها ومقصودها وبديع نظمها، من غير استعانة بتفسير، ولا تتبع لهذه الكلمات من مظان توجد فيها، بل هي استجلاء مما

(٢) لا يفوتني في ختام هذا الشاهد الإشارة إلي أن هناك بحثا آخر هاما عن التكرار في سورة الكافرون للدكتور البدراوي زهران، إلا أنه لا يدخل تحت غرضنا من هذا الباب، حيث إنه ينصب علي خصائص الأصوات والبنيات اللغوية في هذا التكرار، وهذا البحث هو صلب دراسته التي بعنوان " في ضوء التحليل اللغوي – الإعجاز في التكرار"، انظر هذه الدراسة بمجلة معهد اللغة العربية بجامعة أم القري، العدد الثاني ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م من: ص١٥٥ إلي ص١٩٠.

علمه الله وألهمه بفضله وكرمه والله يعلم أني لو وجدتها في كتاب لأضفتها إلي قائلها وبالغت في استحسانها [1]".

**الوجه الرابع:** هذا الوجه يختص بالتكرار حين يكون دليلا علي الدقة التامة في الكلام، وعلي أن كل لفظ وكل تعبير فيه محسوب ومقصود تماما لحكمة معينة.

وهذا ما سأحاول إيضاحه في القرآن من خلال شاهدين أيضا: *أحدهما:* يتعلق بحقيقة تكررت في القرآن كثيرا، *والثاني:* يتعلق بحقيقة لم تتكرر فيه إلا مرة واحدة، وذلك لأؤكد أمرا معينا، وهو أن الحكمة قائمة وراء كل لفظ وكل تعبير في القرآن مهما كانت مرات تردده.

**الشاهد الأول:** ويتعلق بذكر القرآن لسمع الإنسان وبصره مقترنين في مناسبات متعددة مع تقدم السمع علي البصر دائما في كل مناسبة. وقد تكرر ذلك تحديدا خمس عشرة مرة كما هو في المواضع التالية: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ يونس: ٣١، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴾ هود: ٢٠، ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ النحل: ٧٨، ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ الإسراء: ٣٦، ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾

(١) التفسير القيم: ص ٥٣٥.

**السجدة: ٩، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ فصلت: ٢٠.**

**ومن الملاحظ** أن المناسبات أو الأغراض التي ذكر فيها (السمع والبصر) في النصوص السابقة متفاوتة متنوعة،**فمنها:** ما يتعلق بتوجيه الإنسان إلي ربه الواحد عن طريق تنبيهه إلي بعض مظاهر قدرته ونعمته، كما هو في النص الأول والثالث والخامس، **ومنها:** ما يتعلق بحال الكفار في إعراضهم عن الحق الساطع أمامهم كمن فقد سمعه وبصره، فلا يصل إلي إدراكه شئ ولا يري أمامه شيئا، وذلك في النص الثاني.

**ومنها:** ما يتعلق بمسئولية الإنسان تجاه قواه الإدراكية وإرشاده إلي حسن استخدامها، كما هو في النص الرابع، **ومنها:** ما يتعلق بشهادة الجوارح ونطقها بذنوب أصحابها يوم القيامة، كما هو في النص الأخير.

ورغم هذا التفاوت في أغراض تلك النصوص يظهر أن القرآن لا يتخلي عن هذا الترتيب المذكور بين السمع والبصر في أي موضع من المواضع، فلابد إذا أنه ترتيب مقصود تماما ولحكمة مقصودة أيضا.

**ويصعب عَلَيَّ اليوم التعرف علي هذه الحكمة التي باتت مؤكدة في ضوء التقدم العلمي الحديث، ويمكن أن أوجز بيانها في الأمور التالية:**

**الأمر الأول:** يعد (السمع) أهم من (البصر) فيما يختص بالجانب الإدراكي أو العلمي في حياة الإنسان، فعن طريق السمع يتعلم الإنسان الكلام وتتناهى إليه المعلومات المختلفة، ومن ثم فإنه إذا ولد أصم يعيش أبكم ولا يستطيع النطق ولا التفاهم ولا التعلم إلا في أضيق الحدود، وبالعكس فإن فقده لبصره دون سمعه لا يترك في حياته الإدراكية أو العلمية مثل هذه الآثار بدليل ما نعرفه من أحوال العميان –أصحاب البصيرة في الغالب الأعم –ونبوغ كثير منهم في مجالات

معرفية متعددة. **الأمر الثانى:** تبين أن المولود يسمع ويميز بين الأصوات – وبخاصة صوت أمة – قبل أن يبصر ويميز بين المرئيات. **الأمر الثالث:** تبين أيضا أن جهاز السمع يتكون ويكتمل في حياة الجنين قبل تكون جهاز البصر، ومن ثم فإن الجنين يستطيع وهو في بطن أمه سماع الأصوات منذ الشهر الرابع، بينما هو – في الوقت نفسه – داخل ظلمة الرحم لا يستطيع بأي حال أن يرى شيئا(١).

**من جانب آخر:** فإن كلمة (السمع) في جميع المواضع التي أشرت إليها لم ترد إلا بهذه البنية الدالة علي الواحد والجمع والمصدر في آن واحد (٢) دون أن ترد البنية الأخرى التي لا تدل إلا علي الجمع، وهي: (أسماع) في أي موضع، بينما كلمة (البصر) – كما يتضح من النصوص السابقة – ترد بصيغة المفرد (بصر) أحيانا وبصيغة الجمع (أبصار) أحيانا أخري، واطراد هذا الأمر يؤكد أنه مقصود أيضا كما يغري بمحاولة البحث عن السر الذي وراءه، وهو– والله أعلم – راجع أيضا إلي خواص حاستي السمع والبصر وإلي طريقة الإنسان في استخدامهما .

**وأبدأ هنا بحاسة البصر:** فألحظ أن عملية الإبصار يمكن أن تتنوع وتتعدد حسب اختلاف أحوال المبصرين، فيمكن أن يكون المُبْصَر – بفتح الصاد

(١) اقتبست هذه الحقائق الثلاث من كتاب الدكتور محمد علي البار: خلق الإنسان بين الطب والقرآن:ص ٢٣٥ – ٢٣٦، ط٧، الدار السعودية ١٤٠٩هـ – ١٩٨٨م، وكتاب خالص جلبي: الطب محراب الإيمان: جـ١/٢٠٢ – ٢٠٣، ط٧ مؤسسة الرسالة ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م .

(٢) جاء في (الصحاح) مادة (سمع): (سمع الإنسان يكون واحدا وجمعا كقوله تعالي: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ لأنه في الأصل مصدر قولك: سمع الشئ سمعا وسماعا، وقد يجمع علي أسماع)

– واحدا لكنهم يختلفون في نظرهم إليه، فهذا ينظر إليه من جانب، وهذا ينظر من جانب آخر، وذاك يغض نظره عنه بمجرد رؤيته، ورابع يغمض عيينه تماما من البداية حتي لا يراه، وهكذا فهنا لا يوجد بصر واحد بالفعل بل توجد (أبصار) متعددة تبعا لطريقة الإبصار ولأحوال المبصرين، **وأما حاسة السمع:** فلا ينطبق عليها ما سبق ذكره عن (البصر) حيث إن الصوت إذا صدر سمعه الجميع بطريقة واحدة، ولو اجتمع فريق من الناس في مكان واحد ثم حدث صوت، فلا يسعهم جميعا إلا سماعه، ولا يمكن أن تتعدد مواقفهم تجاهه بأن يسمعه شخص ولا يسمعه آخر، لأنه لا يوجد تحكم ذاتي في حاسة السمع كما هو موجود في حاسة البصر، فهذه الأخيرة يمكن استخدامها أو تعطليها بواسطة العين نفسها، أما الأولي فإنها مفتوحة تلقائيا مهيأة لأي صوت [1]،فكأنهم إذا في طريقة استقبالهم للصوت وتأثرهم به لهم (سمع واحد) وليس لهم (أسماع) – ومن ثم كان اختبار القرآن لهذه البنية الأولي دون البنية الثانية هو الأولي والأقرب فعلا إلي الواقع والحقيقة [2].

**الشاهد الثانى:** وهو يتعلق بتعبير قرآني خاص بعباد الله (الصابرين)، وهذا التعبير لم يتردد في القرآن إلا مرتين: **المرة الأولى:** في سياق قصة قارون ردا علي المفتونين بحظه الدنيوي وذلك في الآيتين التاليتين: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ

(١) وهذا هو السر في أن الله تعالي قد قال عن أصحاب الكهف: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ ﴾ كي يمنع الأصوات التي توقظهم ولم يقل: "فضربنا علي أبصارهم" ذلك أن إغلاق البصر أمر ذاتي أما إغلاق السمع فلابد أن يتم بجارحة أخري أو بسبب خارجي.

(١) الفكرة الأساسية في الحديث السابق عن إفراد (السمع) وجمع (البصر) مقتبسة من الخواطر المذاعة للشيخ محمد متولي الشعراوي حول القرآن الكريم.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ القصص: ٧٩ - ٨٠، **والمرة الثانية:** في سياق الدعوة إلي الله وما تقتضيه من الحلم وسعة الصدر، وذلك في الآيات التالية: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٣٥﴾﴾ فصلت: ٣٣ - ٣٥.

**وهذا التعبير الذى أقصده فيما سبق هو: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ القصص: ٨٠، ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾ فصلت: ٣٥.**

**والذي لفت نظرى هو:** أن هذا التعبير لم يقترن في القرآن إلا بالصابرين دون غيرهم من عباد الله الصالحين كالقانتين – مثلا – والصادقين والخاشعين والمتصدقين والصائمين وغيرهم من المذكورين معهم في الآية الخامسة والثلاثين من سورة الأحزاب، فلم يَرِدْ: "ولا يلقاها إلا الصادقون" أو "ولا يلقاها إلا الخاشعون" إلي آخر ذلك، **ومن ثم فقد وَقَفْتُ** أمام هذا التعبير لأبحث عن السر الذي وراءه كما اعتدت أن أبحث عن أسرار غيره من المثاني القرآنية،وهذا السر – بالطبع – يكمن في المنزلة الخاصة للصبر والصابرين في ميزان الله تعالي،غيرأن ذلك لا يزال بحاجة إلي نوع من التفصيل الذي يقرب من فهم أعمق لهذه المنزلة ويتيح – في الوقت نفسه – استخلاص الثمرة التي أرجوها من الشاهد الذي بين يدي، ***وهذا هو ما سَأُحَاوِلُه من خلال النقاط التالية:***

**الأولي: قال المفسرون** عن الآية الثمانين من سورة القصص: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ﴾ أي العالمون بأحوال الدنيا والآخرة كما ينبغي قالوا للذين ﴿يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ في الآية السابقة: ﴿وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ في الآخرة ﴿خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ

﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾، فالمؤمنون الصالحون هم الذين يقدرونه وينالونه، ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾أي هذه الكلمة التي تكلم بها العلماء أو الثواب أو الجنة أو السيرة القائمة علي الإيمان والعمل الصالح ﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ علي الطاعات وعن الشهوات[1]، فهاء الغيبة في صيغة﴿ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ تعود – كما يظهرلى – علي معان متعددة لكنها – في الحقيقة – معان متآلفة مترابطة يمكن الجمع بينها أو يمكن – بعبارة أخرى – للصابرين أن يستوعبوها كلها، فهذا القول المذكور في الآية لا يصدر إلا عن الصابرين علي فتن الدنيا وشهواتها، تلك التي استولت علي قلوب الذين قالوا: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾ **وهذا الثواب المذكور في الآية أيضا** سيكون في مقدمة من يناله الصابرون الذين صبروا علي كل بلاء في الدنيا وعلي كل إغراء ابتغاء مرضاه الله، فلابد أن يرضيهم الله أيضا في الآخرة، وكذلك السيرة الطاهرة القائمة علي الإيمان والعمل الصالح هي جوهر حياة الصابرين، فما هذه السيرة – في حقيقتها – إلا صبر عن الشهوات وصبر علي الطاعات.

**الثانية:** أما الآية الخامسة والثلاثون من سورة فصلت فيقول فيها ابن كثير: "وما يقبل هذه الوصية [2] ويعمل بها إلا من صبر علي ذلك فإنه يشق علي النفوس، ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والآخرة[3]، ويقول فيها أبو السعود: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ ﴾ أي ما يلقي هذه الخصلة

(١) نقلا عن أبي السعود (بتصرف) فى تفسيره: ٧/ ٢٦، ط دار إحياء التراث العربي، وينظر:تفسير الطبري: ٢٠/ ١١٦ و ابن كثير: ٦/ ٢٦٥ – ٢٦٦، في ظلال القرآن:٥/ ٢٧١٣.

(١) وهي مقابلة الإساءة بالإحسان.

(٢) تفسير ابن كثير:٧/ ١٦٩.

والسجية التي هي مقابلة الإساءة بالإحسان﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾ أي شأنهم الصبر ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ من الخير وكمال النفس[1]، **ومن الواضح أن سياق هذه الآية** قد ساعد علي إبراز منزلة الصابرين حيث تحدث عما يواجهه المؤمنون – والدعاة خاصة – من إساءات أعدائهم مرشدا إلي مقابلة ذلك بالحلم والإحسان، ثم معقبا علي ذلك مباشرة بأنه لا يتقبل هذه الوصية أو لا يستطيع النهوض بها إلا الصابرون وإلا من كان ذا حظ وافر من الخير وعلو النفس، **وهذا الختام ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾** قد جاء بصيغة عامة لا يتبين منها: أي نوع من الناس هو صاحب هذا الحظ العظيم لكنها – برغم هذا التعميم – تبدو في السياق كأنها استطراد أو زيادة بيان لمنزلة الصابرين، أو يمكن أن يفهم منها علي أقل تقدير – بحكم قرينة السياق – أن الصابرين لهم من هذا الحظ أوفى نصيب,

**الثالثة:** إن السنة النبوية الشريفة لتزيد كلام الله بيانا وتفصيلا بشأن منزلة الصبر والصابرين، ومن ذلك:

**أ –** ما أخرجه البخاري ومسلم من طريق ابن شهاب الزهري، قال: أخبرني عطاء بن يزيد الليثي أن أبا سعيد الخدري (ﷺ) أخبره (أن ناسا من الأنصار سألوا رسول الله (ﷺ) فلم يسأله أحد منهم إلا أعطاه حتي نفد ما عنده، فقال لهم حين أفني كل شئ بيده: ما يك عندي من خير لا أدخره عنكم، ومن يستعف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يصبر يصبره الله، ولن تعطوا عطاء خيرا وأوسع من الصبر)[2].

---

(٣) تفسير أبي السعود: ١٤/٨. وانظر أيضا في هذه الآية تفسير (الظلال):٣١٢٢/٥٤.

(١) أخرجه البخارى فى: صحيحه،فى كتاب الرقاق . بَاب الصَّبْرِ عن مَحَارِمِ اللَّهِ وَقَوْلِهِ (ﷻ) { إنما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ }، ٢٣٧٥/٥ برقم ٦١٠٥.

نعم صدق رسول الله (ﷺ): (ولن تعطوا عطاء خيرا وأوسع من الصبر)، فليس هناك عطاء أبدا يقنع الإنسان أو يسد مطامعه إن كان له واد من ذهب – كما ورد في الحديث أيضا – في أن يكون له ثان وإن كان له اثنان تمني أن يكون له ثالث، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب[1]، فليس هناك إذا عطاء يرزقه الإنسان أفضل من الصبر، فالصبر وحده هو الكفيل بتهذيب هذا الإنسان وبوضع حد لمطامعه، بل هو الكفيل بتحويله من آخذ إلي معط ولو كان هو أشد الناس حاجة للعطاء ٠ **ب** – وما أخرجه الطبراني فى الأوسط وابن أبي داود في البعث من حديث أبي حازم عن أبي هريرة (ﷺ) يرفعه، قال: (يؤتي الرجل من قبره، فإذا أتي من قبل رأسه دفعه تلاوة القرآن، وإذا أتي من قبل يديه دفعه الصدقة، وإذا أتي من قبل رجليه دفعه مشيه إلى المساجد، والصبر حجرة وقال: أما لو رأيت خللا لكنت صاحبه)[2].

**قال الأصبهاني معلقا: قوله:** حجرة أي ناحية، أي: واقف ناحية فى القبر يقول: إن كان لا يقدر تلاوة القرآن والصدقة والمشي إلي المسجد دفع المكروه عنه من جوانبه دفعت أنا عنه[3]، **فالحديث يبين** كيف تدفع الأعمال الصالحة عن صاحبها عذاب القبر لكنه يصور قيمة الصبر – خاصة – من بين هذه الأعمال تصويرا بليغا، إنه يصوره كالحارس المغوار الذي يرافق قائده مع بقية الحراس

---

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق . باب ما يتقى من فتنةالمال:٥/٢٣٦٥ برقم:٦٠٧٥.

(١) أخرجه الطبرانى فى المعجم الأوسط: ٩/١٦٦برقم ٩٤٣٨ ، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد،عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، ط: دار الحرمين – القاهرة، ١٤١٥هـ، ٩/١٦٦.

(٢) مما ورد عن مادة (حجر) في الصحاح: حجر القاضي عليه: منعه من التصرف ٠٠ والحجرة: حظيرة الإبل ومنه حجرة الدار: تقول: احتجر حجرة أي اتخذها ٠ أ هـ. فكأن الصبر قد رافق صاحبه ليمنع عنه الخطر، أو اتخذ له ناحية من القبر كالحجرة الخاصة كي ينطلق منها لحماية صاحبه عند اللزوم.

تاركا لهم مهمة حمايته حتي إذا ضعف أحدهم أو عجز عن هذه الحماية تدخل هو فورا ليجبر هذا الضعف وليحمي القائد من الخطر، كذلك الصبر إنه يجبر النقص في كل طاعة ولا تجبره أي طاعة، ذلك لأن النفس تتكلف فيه من الجهد والمشقة مالا تتكلفه في غيره من أنواع الطاعات والقربات، أو أقول: إن كل أنواع الطاعات والقربات لاتتم أصلا إلا بمدد من الصبر.

**الرابعة:** أزيد كل ما سبق وضوحا في ضوء تعبير قرآني آخر عن الصابرين وهو قوله تعالي: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ الزمر: ١٠.

إن هذا التعبير لم يرد في القرآن إلا مرة واحدة، ولم يختص به أيضا إلا طائفة واحدة من المؤمنين والصالحين، وهي طائفة الصابرين، وذلك مما يدل علي إعجاز هذا القرآن العظيم الذي يزن حقائقه وتعبيراته بميزان دقيق، لقد تحدث عن المؤمنين والصالحين، ولم يجعلهم سواء، بل جعلهم درجات تتفاوت بتفاوت دورهم وعطائهم في مرضاة الله ٠ وكانت درجة الصابرين – كما سبق– من هذه الدرجات التي ميزها تميزا دقيقا حسب دورها وعطائها من خلال التعبير الذي تحدثت عنه في النقاط السابقة، ثم هاهو ذا يجلي هذا التمييز تماما بهذا التعبير المختص بأجر الصابرين **﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ زَوْجَهَا**، هذا وإن المرأ يمكن أن يمر علي هذا التعبير كمروره علي أي تعبير آخر أو يفهم منه – علي أقصي تقدير – أنه مجرد تركيب بياني بليغ يوضح عظم جزاء الصابرين، **لكن الأمر**– في الحقيقة – أعمق من ذلك،لأن" الصابرين "وحدهم الذين يوفون أجرهم بغير حساب، و ذلك لأن الصبر نفسه عطاء من "الصابر" بغير حساب، إنه علي حال واحدة لا تتبدل في هذا العطاء تغمره النعم من كل جانب فيعطي، وتغمره البلايا من كل جانب فيعطي أيضا، وأقصد بهذا العطاء أوسع معانيه أقصد به

فيض النفس الكبيرة الشامخة: تقابل بالحجود والحرمان فتفيض بالجود والإحسان، وتقابل بالبطش والجهل فتفيض بالحلم والصفح، وتقابل بالفتن والإغراءات فتفيض بالصلابة والثبات،أفيكون " الصابر " إذا أكرم من ربه؟! يعطي هو بغير حساب، ثم يعطيه ربه بحساب أو يزن له بميزان؟ ! ـ حاشا لله ـ إن الجزاء من جنس العمل كما يقال، فمن أعطي بغير حساب لابد أيضا أن يثاب بغير حساب، **ومن ثم يقول المفسرون** في هذا التعبير الذى بصدده الكلام: " إنما يوفي الذين صبروا علي دينهم وحافظوا علي حدوده ولم يفرطوا في مراعاة حقوقه لما اعتراهم في ذلك من فنون الآلام والبلايا – أجرهم[1] بغير حساب أي بحيث لا يحصي ولا يحصر، وفي الحديث: أنه تنصب الموازين يوم القيامة لأهل الصلاة والصدقة والحج فيؤتون بها أجورهم، ولا تنصب لأهل البلاء بل يصب عليهم الأجر صبا، حتي يتمني أهل العافية في الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل[2]".

**الخامسة:** من الملاحظ اللطيفة أيضا التي ظهرت من تناول هذا الشاهد ذلك التقابل العجيب بين (الحظ العظيم) المذكور في " **الآية/٧٩" من سورة القصص** و(الحظ العظيم) المذكور في **(الآية/٣٥) من سورة فصلت**، وهو تقابل يبرزه ويجليه أن (الحظ العظيم) لم يذكر أيضا في القرآن كله إلا في الموضعين السابقين ، فهل حدث ذلك مصادفة أو اتفاق ألفاظ وعبارات؟ كلا بل هو أمر مقصود تماما، وذلك كي يرسل كل من الحظين – حسب مناسبته وسياقه – بأشعته إلي الآخر فيضيئه ويجليه من جميع جوانبه، ثم تجتمع الأشعة كلها في نفس المتلقي كي تحدث الأثر المطلوب من هذا التقابل المذكور، فالحظ العظيم –

(١) ﴿ أَجْرَهُم ﴾ هو مفعول﴿ يُوَفَّىٰ ﴾ الذي سبق في أول الكلام.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود: جـ٧ /٢٤٦.

فـي الآيتـين السـابقتين – تسـمية واحـدة لمسـميين متناقضـين تمامـا، يحكيـان بتناقضـهما البـون الشاسـع بـين بنـي البشـر أوبـين الحـق والباطـل، مـن حيـث التصـورات والتطلعـات ومـن حيـث المعـايير والموازين، فـالحظ العظـيم فـي تصـور الخاسرين المبطلين، هو هذا الحظ الدنيوي الذي أوتيه قارون وتمناه الذين فتنوا به عندما رأوه فقالوا: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾، وأمـا الحـظ العظـيم فـي تصـور المؤمنين الفائزين فهو القدرة علـي مقاومـة الشـهوات وملازمـة الطاعات، وهو أيضا الجزاء العظيم الذي يدخره الله لفرسان هذا الميدان.

إن القرآن حـين ذكـر الحـظ العظـيم لـم يَسْرُد بشـأنه مثـل هـذا الكـلام، ولا عَقَدَ مثل هذه المقارنـة التـي عقدت فيـه بين الفريقين، إنما اكتفي فقط بذكره في سياقين مختلفين متمايزين وتركنا نحن لتلقي هذه الأشعة من مجرد التقابل بين الصورتين.

وبهذا أكون قدحاولت بيان بعض ما أعطته المثانى القرآنية وأسهمت به فى ميدان إعجاز القرآن من أنها جزء أصيل من النسيج القرآنى نفسه، وأنها مصدر حقيقى من مصادر العطاء والتجدد فى القرآن الكريم.

# خاتمة البحث

الحمد لله أَوَّلاً وآخراً، والصلاة والسلام على النبى المختار، وأصحابه الأخيار صلاة وسلاماً دائمين بدوام الليل والنهار ... وبعد: ففى خاتمة هذا البحث أحمد الله وأشكره على عظيم منته وفيض كرمه من الانتهاء منه، ثم أُسجِّل بين يدى القارئ الكريم أهم النتائج التى توصلت إليها، وتتمثل فيما يأتى:

١ـ إن كلمة (المثانى) التى وردت فى كتاب الله مرتين: إحداهما صفة لهذا الكتاب، والأخرى صفة لفاتحته ترتبط بالإعادة والتكرير أياً كان هذا التَّكْرير مرة واحدة أو مرتين أو أكثر، فالشىء الذى (يُثَنَّى) أى: الذى يُكَرَّر، وليس الذى يكون اثنين فقط، وهذا المعنى الأخير مرتبط بالتكرير أيضاً، لأن الثانى هو الذى يأتى بعد الأول، وهذا نوع من التكرير، لأنه مجيئ بعد مجيئ.

٢. إن وصف القرآن بأنه (مَثَانٍ) معناه: أن التكرير ظاهرة واضحة فى كثير من مدلولاته وتوجيهاته وقصصه وتعبيراته الَّتى تَرِد فيه بطُرُق وأساليب متنوعة.

٣ـ إن وصف الفاتحة بأنها (مَثَانٍ) لأنها تُرَدَّد كثيراً فى حياة المؤمن وصلواته، ولأن أهدافها أيضاً ومدلولاتها –حسب اجتهادى المتواضع – تُرَدَّد وَتُفَصَّل فى الكتاب كله، نظراً لأنها الأم التى تنطوى على مُجْمَل أسسه وأهدافه.

٤. إنه لا تَعَارُض بين إطلاق هذا الوصف على الكتاب كله مرة، وعلى طائفة منه مرة أخرى، بل تَوَاصُلٌ وتكامُلٌ.

٥ـ إن الذين صَنَّفُوا فى هذه العلوم والدراسات قد تَطَرَّقوا لهذه الظاهرة بالفعل، وإن كان ذلك منهم تحت اسم (المتشابه) أو (الآيات المشتبهات) أو (المتشابه اللفظى) دُونَ الرَّبط صراحة بين مُصَنَّفاتِهِم فى ذلك وهذه التسمية القرآنية، ودون التفكير فى اتخاذها مُصْطَلَحاً متميزاً يُطْلِقونه على هذه المصنفات.

٦. إن السبب الأهم فى ارتباطى بالتسمية القرآنية هو أن هذا المصطلح هو الأقدر على التعبير الحقيقى عن واقع الظاهرة التى يدل عليها فى القرآن تعبيراً يشهد بِتَمَيُّزها أو تَفَرُّدها مما يستدعى تمييزها باصطلاح خاص يدل عليها.

٧. إن مصطلح المتشابه لا يُغْنى أيضاً عن مصطلح المثانى، لأنه يدل بنفس لفظه على التَّكْرَار، كما أنه يثير نوعاً من الخلط مع المتشابه الآخر الذى يقابل المحكم، والفرق بين

النوعين بعيد، حيث يتعلق أحدهما بالآيات المتماثلة أو المتقاربة فى صيغها ومدلولاتها، بينما يتعلق الثانى بالآيات الملتبسة أو التى يخفى معناها على بعض الناس.

٨- إن نظام السورة القرآنية هو سر هذه الظاهرة ومَنْبعها، لأن هذا النظام ينطلق من مهمة القرآن الكبرى، وهى هداية الإنسان وتغيير حياته كُلّيا إلى الوضع الذى يوافق منهج الله تعالى، لذا كان نظام السور القرآنية يقوم على الانتقاء أى التركيز على زوايا بعينها فى هذه الأهداف دون غيرها أو الإجمال فى بعضها والتفصيل فى بعضها الآخر، ولم يقم نظام السورة على الاستقصاء.

٩. هناك فروق دقيقة بين الصيغ المتشابهة أو المتكررة، تظهر بِرَدِّ كل صيغة إلى سياقها وربطها أيضاً بأهداف سورتها، وأيضاً بدراسة أهداف السورة العامة، ثم دراسة سياقها المعبر عنها دراسَةً تفْصِيليَّة تؤدى إلى معرفة الداعى إلى تكرير توجيهٍ أو تعبيرٍ معينٍ بنفس لفظه الذى ورد به فى سورة أخرى أو داخل السورة نفسها.

١٠. تميز القرآن الكريم عن غيره من الكتب وعن كل أنماط البيان الإنسانى، والمثانى القرآنية تُعَدُّ مُقَوّماً هاماً من مُقَومات هذا التميز القرآنى .

١١. إسهام المثانى فى تغيير النفس الإنسانية والاتجاه بها نحو المنهج الذى أراده الله.

١٢. تُقَدِّم المثانى الأدلة على صدق مضمون القرآن، أو على صدق نسبته إلى مصدره الإلهى .

**وأخيراً**: أحمد الله (ﷻ) أن هدانى إلى اختيار موضوع هذا البحث فما كان لى من علم به، كما أحمده أن وفقنى وأعاننى على إتمامه، فإليه وَحَدَه يرجع الفضل كله

ولا فضل لى فى كل ذاك وإنما ∴ من الله كل الفضل بدءًا ومنتهى

وأسأله (ﷻ) أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه، وأن يجعله فى ميزان حسناتى يوم القيامة إنه على كل شىء قدير وبالإجابة جدير، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً. اللهم آمين .

**الفقير إلى عفو وغفران الرب الجليل الجليل**
دكتور/ عبد الرحمن محمد عبد المتعال

# أهم المصادر والمراجع

## بعد القرآن الكريم


١- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، للعلامة أبى السعود طبع: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

٢- الإتقان فى علوم القرآن، لجلال الدين السيوطى. طبع: دار عالم المعرفة.

٣- البحر المحيط، لأبى حيان. طبع: دار الفكر.

٤- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، لمحمد بن على الشوكانى ت ١٢٥٠ هـ. مكتبة: ابن تيمية القاهرة.

٥- البرهان فى توجيه متشابه القرآن، لمحمود بن حمزه الكرمانى، طبع: دار الكتب العلمية بيروت، ١٤٠٦ _ ١٩٨٦م.

٦- البرهان فى علوم القرآن، لبدر الدين الزركشى، تحقيق: د/ زكى محمد أبو سريع، طبع: دار الحضارة للنشر والتوزيع.

٧- البلاغة الواضحة، لعلى الجارم ومصطفى أمين. طبع: دار المعارف. ١٣٨٩ هـ.

٨- البيان والتبيين، لأبى عمرو الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، طبع: الخانجى القاهرة.

٩- التفسير القيم لابن قيم الجوزية، جمع: محمد أويس الندوى. تحقيق: محمد حامد الفقى، طبع: دار الكتب العلمية بيروت.

١٠- التفسير الكبير، للعلامة فخر الدين الرازى طبع: دار الغد العربى.

١١- التفسير الموضوعى للقرآن الكريم، للأستاذ الدكتور/ أحمد السيد الكومى، الأستاذ الدكتور/ محمد أحمد يوسف القاسم. مطبعة: دار البيان القاهرة.

١٢- التكرير بين التأثير والمثير، للدكتور عز الدين السيد. طبع: دار الطباعة المحمدية.

١٣- الجامع لأحكام القرآن، لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى. طبع: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

١٤- الدرر الكامنة، لابن حجر، حيدرآباد الهند ط١ ١٩٤٨م.

١٥- السنن الكبرى للبيهقى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، نشر: مكتبة الباز مكة المكرمة ١٤١٤_ ١٩٩٤م.

١٦- الصحاح، لإسماعيل بن حماد الجوهرى، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، طبع: دار الكتاب العربى.

١٧- الفرقان بين الحق والباطل، لابن تيمية. طبع: مكتبة دار البيان دمشق.

١٨- الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، لابن تيمية، تحقيق: محمود عبد الوهاب فايد، طبع: دار الفكر.

١٩- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل، لأبى القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشرى الخوارزمى ٤٦٧- ٥٣٨ هـ عالم المعرفة.

٢٠- المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر، لضياء الدين بن الأثير، تحقيق:محمد محى الدين عبد الحميد، طبع: مصطفى الحلبى.

٢١- المعجزة الكبرى، للشيخ محمد أبو زهرة. دار الفكر العربى مصر ١٩٧٧م.

٢٢- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، لمحمد فؤاد عبد الباقى، طبع: دار الحديث القاهرة.
٢٣- الوافى بالوفيات، لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى ت ٧٦٤هـ طبع: بيروت.
٢٤- تاج العروس، لمحمد مرتضى الزبيدى طبع: دار مكتبة الحياة بيروت.
٢٥- تأويل مشكل القرآن، لعبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: السيد أحمد صقر، طبع: دار التراث بالقاهرة.
٢٦- تفسير القرآن العظيم، للإمام ابن كثير. نشر: مكتبة التراث الإسلامى.
٢٧- تنزيه القرآن عن المطاعن، للقاضى عبد الجبار. طبع: دار النهضة الحديثة بيروت.
٢٨- جامع البيان عن تأويل آى القرآن، للإمام ابن جرير الطبرى ت ٣١٠ هـ طبع: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
٢٩- خلق الإنسان بين الطب والقرآن، لمحمد على البار، طبع: الدار السعودية.
٣٠- دراسات قرآنية، لمحمد قطب. طبع: دار الشروق ٤٠٢- ١٩٨٢م ط ٣.
٣١- درة التنزيل وغرة التأويل فى بيان الآيات المتشابهة فى كتاب الله العزيز، للخطيب الإسكافى، طبع: دار الآفاق الجديدة بيروت. ٣٢- درر الفوائد و غرر القلائد المعروف بأمالى المرتضى، للشريف المرتضى، تحقيق: محمد أبى الفضل إبراهيم، طبع: الحلبى.
٣٣- روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى، للإمام أبى الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسى البغدادى ت ١٢٧٠ هـ طبع: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
٣٤- سنن الدارمى، لأبى محمد عبد الله بن بهرام الدارمى، طبع: دار الفكر بيروت.
٣٥- شجر النور الذكية، لمحمد بن مخلوف، السلفية القاهرة ١٣٤٩هـ.
٣٦- شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلى القدسى، القاهرة ١٣٥٠.
٣٧- شرح السنة، للإمام حسين بن مسعود البغوى ت٥١٦ هـ، تحقيق: زهير الشاويش، و شعيب الأرنؤوط، نشر: المكتب الإسلامى بيروت، ط٢ ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.
٣٨- صحيح البخارى بشرح فتح البارى، لأبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى طبع: دار الريان للتراث.
٣٩- صحيح الترمذى، لأبى عيسى محمد بن عيسى الترمذى طبع: دار الحديث القاهرة.
٤٠-صحيح مسلم بشرح النووى، لمسلم بن الحجاج، تحقيق: عصام الصبابطى و غيره، طبع: دار الحديث القاهرة.
٤١- طبقات المفسرين، لشمس الدين الداودى ت ٩٤٥هـ. نشر: دار الكتب العلمية بيروت.
٤٢- ظاهرة التكرار فى القرآن، د/ عبد المنعم السيد حسن. دار المطبوعات الدولية مصر.
٤٣- عروس الأفراح، لبهاء الدين أحمد بن على السبكى. مطبعة: بولاق مصر ١٣١٨هـ.
٤٤- غاية النهاية فى طبقات القراء، لشمس الدين أبى الخير محمد بن محمد الجزرى. نشر: مكتبة الخانجى مصر.
٤٥- فى ظلال القرآن، للشيخ الشهيد سيد قطب. طبع: دار الشروق.
٤٦- لسان العرب، لابن منظور. طبع: دار صادر بيروت ١٣٧٢هـ ١٩٥٦م، وأيضاً دار: لسان العرب بيروت.
٤٧- مجمع البيان فى تفسير القرآن، للشيخ لأبى على الفضل بن الحسن الطبرسى. طبع: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

٤٨- مجموع فتاوى ابن تيمية. طبع: المكتب التعليمى السعودى.
٤٩- مختصر سيرة الرسول ﷺ، لمحمد بن عبد الوهاب، تحقيق: محمد حامد الفقى، طبع: مكتبة السنة المحمدية.
٥٠- معالم التنزيل للإمام محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوى الشافعى ت ٥١٦ هـ، تحقيق: محمد عبد الرازق المهدى، طبع: دار إحياء التراث العربى
٥١- معانى القرآن وإعرابه، لأبى إسحاق إبراهيم بن السرى، شرح وتحقيق: د/ عبد الجليل شلبى، طبع: دار الحديث القاهرة. ٥٢- معانى القرآن، لأبى زكريا يحيى بن أبى زياد الفراء ت ٢٠٧، تحقيق ومراجعة: محمد على النجار مطبعة: دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ط٣ ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.
٥٣- معترك الأقران فى إعجاز القرآن، لجلال الدين السيوطى، تحقيق: على محمد البجاوى، طبع: دار الفكر العربى.
٥٤- معجم المؤلفين لعمر كحالة، المكتبة العربية بدمشق سوريا ١٩٥٧م.
٥٥- ملاك التأويل القاطع بذوى الإلحاد والتعطيل فى توجيه المتشابه اللفظى من آى التنزيل، لأبى جعفر بن الزبير، تحقيق: سعيد الفلاح، طبع: دار الغرب الإسلامى بيروت.
٥٦- نيل الأوطار، للشوكانى. طبع: دار مكتبة التراث القاهرة.

# فهرس الموضوعات


| الموضـــــــــــوع | الصفحة |
|---|---|
| **المقدمة:** | ٣ |
| **المبحث الأول:** مفهوم المثانى القرآنية | ٨ |
| التمهيد: المثاني في اللغة | ٨ |
| المطلب الأول: المثاني صفة للقرآن | ١٠ |
| المطلب الثانى: المثانى صفة لسورة الفاتحة | ١٨ |
| المطلب الثالث: المثانى جهود تراثية | ٣٠ |
| المطلب الرابع: المثانى ضوابط اصطلاحية | ٣٨ |
| **المبحث الثانى:** إعجازالمثانى القرآنية | ٤٧ |
| المطلب الأول: المثانى والتميز القرآنى | ٤٧ |
| المطلب الثانى: المثانى وإقرار النمط الجديد | ٥٥ |

| | |
|---|---|
| المطلب الثالث: المثانى وتصديق القرآن | ٦٢ |
| **الخاتمة** | ١٠٠ |
| **أهم المصادر والمراجع** | ١٠٢ |
| **فهرس الموضوعات** | ١٠٤ |